مايكل كارتر وجهوده في درس النظرية النحوية التراثية مع ترجمة بحثه: التداولية واللغة التعاقدية في البدايات الأولى للنحو العربي والنظرية الفقهية

د. ناصر فرحان الحُريِّص

أستاذ اللسانيات المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة القصيم

المملكة العربية السعودية

مايكل كارتر وجهوده في درس النظرية النحوية التراثية مع ترجمة بحثه: التداولية واللغة التعاقدية في البدايات الأولى للنحو العربي والنظرية الفقهية

د. ناصر فرحان الحُريِّص

ملخص البحث:

تلقي الدراسة الحالية الضوء على جهود المستعربين اللغويين المعاصرين في درس النظرية النحوية التراثية من خلال التركيز على جهود اللغوي البريطاني مايكل كارتر Michael Carter بوصفه أبرز المستعربين المعاصرين المهتمين بفكر سيبويه ونظريته النحوية. يرى كارتر أن عمق التفكير اللساني العربي ودقَّته يبدأ وربما ينتهي بسيبويه وعقليته الفذة التي أرادت درس الطبيعة الوظيفية الكاملة للنظام النحوي، غير أن النحاة بعده آثروا النحو المعياري الصارم الذي أدى إلى جمود النحو العربي إلى يومنا هذا (كارتر ١٩٩٢: ٣٠). وفي سبيل إعطاء عينة عملية لجهود كارتر في اهتمامه بالنظرية النحوية العربية، يترجم البحث واحدًا من أبرز وأهم أبحاث كارتر الحديثة: التداولية واللغة التعاقدية في البدايات الأولى للنحو العربي والنظرية الفقهية، الذي يكشف من خلاله سبق سيبويه الدرسَ اللسانيَ الحديث في التنظير لما يسمى باللسانيات التداولية، ويوضح كيف استفاد أيضًا علماء أصول الفقه من إدراك سيبويه المبكر للمقتضيات الفقهية للصيغة النحوية، ومنه قعدوا للبعد التداولي للمنهج الفقهي؛ مما أدى إلى ميلاد علاقة تلازمية بين النظرية النحوية والنظرية الفقهية في زمن مبكر، وقد اكسبت تلك العلاقة سيبويه كثيرًا من المصطلحات الفقهية التي وظفها في صياغة نظريته النحوية الوليدة آنذاك والتي تؤكد، وفقًا لكارتر، أنَّ الكتاب إبداع فكر رجل واحد، ووصف غير مسبوق للعربية في كل أبعادها (الدينية والشعرية والعامة والخاصة) في إطار تنظيري مستوحى بشكل عميق من مبادئ النظام الفقهي الناشئ آنذاك، والذي لا يدين بشيء، على الغالب، لأي فكر أجنبي: يوناني أو غيره.

Arabic Grammatical Michael Carter's efforts in Studying Medieval Theory with a translation of his paper: 'Pragmatics and Contractual Language in Early Arabic Grammar and Legal Theory'

Dr. NASSER F. ALHORAIS

Abstract

The current study sheds light on the efforts of modern Arabists linguists in studying medieval Arabic grammatical theory by focusing on Michael Carter's efforts as being the most modern Arabists linguists will always be most strongly linked with Sībawayhi (the first systematic grammarian of Arabic). Carter believes that the subtlety and profundity of Arabic linguistic thought starts and perhaps ends with Sībawayhi and his own genius that wanted to study the functional nature of Arabic grammar. Regrettably, his successors transmuted his achievement into the normative and prescriptive grammar which are now regarded as typical of the whole discipline.

To give a sample of Carter's efforts to medieval Arabic grammatical theory, the current study translates one of his most recent important papers, namely 'Pragmatics and Contractual Language in Early Arabic Grammar and Legal Theory'. In this paper, Carters reveals that a form of Pragmatics can be discerned in Sībawayhi's analysis of speech long before it is found by modern Linguistics in which has become known as Pragmatics. The paper also illustrates that the uṣūlīs have benefited from Sībawayhi awareness of the legal implications of grammatical form to establish their own Pragmatics theory. This leads, according to Carter, to that the two sciences of grammar and law leap-frogged each other in an evolutionary series, where the advances of one made further progress possible in the other. This close relationship helps Sībawayhi to discover many legal terms to his own new grammatical theory in that time. This, as pointed out by Carter, indicates the fact that the Kitāb is the creation of a single mind, an unprecedented description of Arabic in all its domains, religious, poetic, public and private, in a theoretical framework which drew deeply upon the principles of the nascent legal system and owes almost nothing to external traditions.

مقدمة:

كان الإرثُ اللغوي العربي محطَ اهتمام العلماء الغربيين منذ أن نشطت حركة الاستشراق المنظَّمة في أواخر القرن التاسع عشر بعد أن اُستعمرت أكثر رقاع العالم العربي اهتمامًا بالعلم وأغناها معرفة (الحصين ٢٠١١: ١٦). وتأتي النظرية النحوية التراثية في مقدمة هذا الاهتمام الذي يعود سببه عند المستشرقين الأوائل، وفقًا لـ(ألبرت ديتريش)- إلى "أن النحو العربي في صورته التي وصلت إلينا عن النحاة القدامى كان الوسيلة المهيأة لدرس اللغة العربية" (نقلا عن عمايرة ١٩٩٢: ١٤). وقد قاموا في سبيل ذلك بترجمة أشهر المؤلفات النحوية التراثية إلى لغاتهم بعد أن حققوها ونشروها باللغة العربية. ويأتي تحقيق وترجمة المستشرق الألماني "يان" لكتاب سيبويه، وترجمة الألماني "ترومب" لشرح الآجرومية في مقدمة تلك الجهود. هذا فضلا عن الكتب التي ألفوها في النحو واللغة متأثرين تأثرًا واضحًا بالنحاة العرب الأوائل كما نجد عند "هاول" و "رايت" وآخرين. وقد اتخذ المستشرقون الأوائل طريقة خاصة في تناول نحو اللغة العربية، وذلك من خلال اعتماد المناهج العلمية والأساليب الإحصائية؛ لغرض الوقوف على أكثر مفرداتها انتشارًا وأشهر تراكيبها النحوية شيوعًا، مع مقارنة ظواهرها بظواهر غيرها من اللغات وخاصة اللغات السامية.

وقد حظيت تلك الجهود الاستشراقية في درس نحو اللغة العربية بشكل خاص وعلومها الأخرى بشكل عام - بالدرس والتقويم إنْ من المستشرقين أنفسهم وإنْ من المختصين باللغة العربية من أبنائها، ولعل من أبرز مؤلفات الصنف الأول التي لها قدم السبق في هذا الجانب الكتابَ الذي ألفه المستشرق يوهان فوك بعنوان: تاريخ حركة الاستشراق: بدايات الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى القرن العشرين، وقد نقله إلى العربية عمر لطفي العالم. في المقابل، تأتي دراسات كثيرة في الصنف

الثاني عرض لها فارس حسن السلطاني (٢٠٠١) حينما كان يمهد لأطروحته: جهود المستشرقين اللغوية في اللغة العربية (المترجمة والمطبوعة (ينظر قائمة المراجع).

غير أنه يغلب على تلك الدراسات السابقة التي عالجت جهود المستشرقين في دراسة وخدمة اللغة العربية (ولا سيما في نظريتها النحوية التراثية)- التركيز على جهود الأوائل منهم، وكادت تتوقف عند بداية ازهادر حركة التحقيق والنشر للتراث اللغوي والنحوي في الجامعات العربية منذ خمسينيات القرن الماضي عندما تولى هذا الأمر أبناء اللغة العربية الذين تتلمذ أكثرهم على أولئك المستشرقين الأوائل، إلا أن العناية بدراسة جهود المستشرقين عادت مرة أخرى منذ ثمانينيات القرن الماضي عبر دراسات أكثر عمقًا وأوسع نقاشًا على نحو ما نجد عند باكلا (١٩٨٢)، وعمايرة (١٩٩٢)، وفرستيغ (١٩٩٤)، والمزيني (٢٠٠٤)، وجدامي (٢٠١٦).

والمتتبع للدراسات اللغوية في الغرب المعاصر يجد أن حركة الاستشراق حول علوم اللغة العربية مازالت قائمة؛ إذ لا تكاد تخلو الجامعات الغربية العريقة من معهد أو مركز أو قسم مختص في الدراسات العربية والإسلامية يأتي في مقدمة اهتماماته التركيزُ على درس التراث اللغوي العربي وكشف كنوزه ومعارفه. وقد أخرجت لنا تلك الصروح العلمية مجموعة جديدة من "المستشرقين الجدد" الذين اصطُلح على تسميتهم بالمستعربين المعاصرين. واللافت في جهودهم أنها تركز على دراسة الفكر العربي والإسلامي ولا تقتصر على مجرد التحقيق والنشر أو الدراسة الوصفية المجردة كما كان عند أسلافهم الأوائل. يضاف إلى ذلك، أن عملهم في دراسة الحضارة العربية والإسلامية اتسم بأنه عمل منظم يقوم على تضافر الجهود الجماعية في البحث العلمي، ويتجلى ذلك من خلال تأسيس اتحاد خاص بهم، أعني به (الاتحاد الأوروبي للمستعربين والمختصين في الدراسات الإسلامية) الذي خُصص له مؤتمر سنوي مازال يعقد منذ أكثر من ثلاثين عامًا[1].

والمتفحص لجهود المستعربين اللغـوين المعاصـرين، لا سـيما في درس النظريـة النحوية التراثية، يجد من المفيد دراسة تلك الجهود؛ لما يلحظ فيها من استشعار بأهمية اللغة العربية في الإسهام في المعرفة التي تتزايد بشكل ملحوظ عن النظريـات النحويـة الحديثة التي طالما استعانت بنحو اللغة العربيـة في اختبـار المقـولات النظريـة اللسـانية وتطويرها. يضاف إلى ذلـك، أهميـة العربيـة في الإسـهام في تطـوير مجـال البحـث في اللسانيات السامية[٢]؛ لما للعربية من خصائص لغوية (محافظة) يُكشف من خلالها عن حقب مهمة في تاريخ اللغات السامية الأخرى التي فقدت كثيرًا من خصائصها اللغوية.

ما تطمح إليه هذه الدراسة هو إلقاء الضوء علـى جهـود المسـتعربين اللغـويين المعاصرين في درس النظرية النحوية التراثيـة مـن خـلال التركيـز علـى درس جهـود اللغـوي البريطـاني مايكـل كـارتر (Michael Carter) بوصـفه أبـرز المسـتعربين المعاصرين المهتمين بفكر سيبويه ونظريته النحوية؛ فقـد كتـب عنهـا عـددًا كـبيرًا مـن الأبحاث والكتب والمراجعات، وقدّم عنها الكـثير مـن الأوراق العلميـة في المـؤتمرات الدولية منذ ١٩٧٢م حتى اليوم. وفي سبيل إبراز تلك الجهود عمليًا، تهدف الدراسـة الحالية إلى ترجمة واحد من أبرز أبحاث كارتر الحديثـة: التداوليـة واللغـة التعاقديـة في البدايات الأولى للنحو العربي والنظرية الفقهية[٣]. وتأتي أهمية ترجمة هذا العمل مـن جوانب متعددة يأتي في مقدمتها:

١- الكشف عن سبق سـيبويه وعلمـاء أصـول الفقـه الـدرسَ اللسـانيَ الحـديث في التنظير لما يسمى باللسانيات التداولية.

٢- الإشارة إلى العلاقة التلازمية بـين النظريـة النحويـة والنظريـة الفقهيـة في أن (أ) كلاهما يتحد مع الآخر؛ لتحقيق هدف مشترك يكمن – على الترتيب- في ضبط السلوك اللغوي والسلوك العام، كمـا أنهـا يقتسـمان منهجًـا مشـتركًا يرمـي إلى

استنتاج القواعد من النصوص اللغوية، ومن ثم توظيف مقتضيات تلك القواعد لتحكم سلوك المسلم العام كما أن (ب) التقدم الذي يتم إحرازه في أحدهما يجعل من عملية تقدم الآخر أمرًا ممكنًا.

٣- بيان أوجه التشابه العامة في منهج دراسة اللغة في بدايات النظريتين النحوية والفقهية، مع التركيز – خاصة – على حس سيبويه العملي، وإدراكه المبكر للمقتضيات الفقهية للصيغة النحوية.

٤- الكشف عن البعد التداولي للمنهج الفقهي، لا سيما بعد نضوج علم أصول الفقه، وعن دور ملاحظات سيبويه في التقعيد لهذا البعد.

٥- توضيح هدف سيبويه من وضعه للكتاب، وهو تقديم وصف كامل للعربية في جميع أنظمتها اللغوية، وهو أمر فشل النحويون الذين جاؤوا من بعده في فهمه وإدراكه عندما لم يوفقوا في إدراك الطبيعة الوظيفية الكاملة في نظام سيبويه فحولوا هدفه وإنجازه إلى اتجاه معياري صارم في النحو العربي مازال يعد السمة السائدة في مجمل الدرس النحوي حتى يومنا هذا (ينظر أيضًا كارتر ١٩٩٢: ٣٠، ٢٠١٦: ٦٣-٦٤).

٦- التأكيد على الطريقة التي يتعامل بها سيبويه مع اللغة، وهي تكمن-كما أكد كارتر في أكثر بحوثه- في النظر إلى اللغة على أنها شكل من السلوك الاجتماعي، وذلك من خلال تبني سيبويه (المقاييس الاجتماعية) السائدة في عصره في تقويم مستوى الصواب في اللغة على جميع مستويات التحليل اللغوي. ومن بين تلك المقاييس الظاهرة في الكتاب، مصطلحا (حسن وقبيح) اللذان يشيران إلى صواب البنية النحوية، بينما يشير مصطلحا (مستقيم ومحال) إلى مدى قدرة المتكلم على التواصل ضمن تقاليد المجتمع وأعرافه (ينظر كارتر ١٩٩٢: ٢٩).

٧- التأكيد على براءة النحو العربي في نشأته من أي مؤثرات أجنبية، وذلك استنتاجًا من الإشارات الفقهية الكثيرة في الكتاب. يقول كارتر في خاتمة بحثه:

إن البعد الفقهي الموجود في الكتاب ما هو إلا تأكيد لجانبين آخرين من حياة وعمل سيبويه، وبهما يتقارب بشكل وثيق مع الأصوليين. أولا: من خلال معرفتنا الضئيلة لتاريخ حياته يمكن لنا أن نستنتج أنه لم يكن فقط على صلة قوية مع علماء العربية الكبار، بل كان أيضًا على صلة وتقارب مع علماء الدين والفقه الأوائل. ثانيًا: كما يدلل على ذلك الكتاب، لقد كان أولئك العلماء مصدر إلهامٍ لأكثر مصطلحاته العلمية والمنهجية. وعلى الرغم من أن ذلك ليس كافيًا للإجابة على القضية الجدلية حول التأثيرات الأجنبية في النحو العربي بشكل كامل، إلا أنه تقوي الاحتمال القائل بأن الكتاب إبداع فكر رجل واحد، ووصف غير مسبوق للعربية في كل أبعادها: الدينية والشعرية والعامة والخاصة، في إطار تنظيري مستوحى بشكل عميق من مبادئ النظام الفقهي الناشئ آنذاك، والذي لا يدين بشيء، على الغالب، لأي فكر أجنبي.

ويجدر بنا، قبل الانتقال إلى البحث في ترجمته العربية، أن نُعرِّف بمؤلفه. فمن هو مايكل كارتر؟ وماذا قدَّمَ من جهود للعربية ونظريتها النحوية؟

مايكل كارتر:

ولد مايكل كارتر في السابع من يناير عام ١٩٣٩م في مدينة فولكستون Folkestone في مقاطعة كنت Kent بإنجلترا، ودرس مرحلة البكالوريوس في معهد الدراسات الاستشراقية بجامعة أكسفورد العريقة، ثم واصل في المعهد نفسه دراسته العليا وكللها بنيل درجة الدكتوراه سنة ١٩٦٨م عن أطروحته حول أُسس التحليل

النحوي عند سيبويه". وقد درّس في عدد من الجامعات العالمية المرموقة، ومن أبرز تلك الجامعات، جامعات سدني، وديوك، ونيويورك، وأوسلو. تقاعد من العمل في جامعة سدني سنة ٢٠٠٦م، ولكن الجامعة تقديرًا له منحته الانتساب الفخري لها إلى يومنا هذا، كما منحته جامعة لوند بالسويد دكتوراه الفلسفة الفخرية اعترافًا منها بجهوده البحثية، وذلك سنة ٢٠٠٣م. عمل أستاذًا زائرًا في عدد من الجامعات والمؤسسات البحثية في مصر وعدد من البلدان الأوروبية، وانضم لفريق الباحثين في مؤسسة ألكسندر فون هومبولت في ميونيخ (١٩٧٨-١٩٧٩) وكولونيا (١٩٨٣-١٩٨٤)[٤].

يعرف عن كارتر اهتمامه الشديد بالتراث النحوي العربي، وتحديدًا كتاب سيبويه الذي نشر عنه دراسة سنة ٢٠٠٤م عنونها بـ"سيبويه"، ويعمل حاليًا على مشروع ضخم عن الكتاب يهدف من خلاله إلى حوسبة مادة الكتاب الضخمة في عمل أطلق عليه رقمنة كتاب سيبويه: The digitalisation of the Kitab of Sibawayhi. هذا فضلًا عن أعماله الكثيرة الأخرى التي أخرجها على شكل كتب أو ألقاها في مؤتمرات دولية عديدة ونشرها في مجلات علمية رصينة حول العربية وتراثها النحوي الضخم ومؤسسه الأول سيبويه، ومن أبرزها[٥]:

(١) عشرون درهمًا في كتاب سيبويه[٦].

(٢) جذور النحو العربي[٧].

(٣) سيبويه واللسانيات الحديثة[٨].

(٤) نحوي عربي من القرن الثامن الميلادي[٩].

(٥) الصرف والخلاف: مساهمة النحو العربي[١٠].

(٦) اللسانيات العربية (وهو كتاب حقق فيه مخطوطًا عربيًّا نحويًّا هو "نـور السـجية في حل المسائل الآجرومية" لمؤلفه سيدي محمد الشربيني)[١١].

(٧) استعمال أسماء العَلم في كتاب سيبويه أداة للاختبار[١٢].

(٨) متى ظهرت الكلمة العربية (نحو) للمرة الأولى بمعنى (القواعد)؟[١٣].

(٩) المصطلح "سبب" في النحو العربي[١٤].

(١٠) الأسس الأخلاقية للنحو العربي[١٥].

(١١) اللغة والشريعة في كتاب الصاحبي لابن فارس[١٦].

(١٢) خليل آخر: وجيهٌ، ومعلمٌ وحكيمٌ (نُشر ضمن دراسات عن الخليل بن أحمد)[١٧].

(١٣) الصراع لأجل السلطة: إعادة النظر في الخلاف البصري والكوفي[١٨].

(١٤) تطور اللسانيات العربية بعد سيبويه: المدرسة البصرية والكوفية والبغدادية[١٩].

(١٥) الحلقة المفقودة بين اللغة والشريعة: كتاب الانتصار لابن ولاد[٢٠].

(١٦) المدارس الفقهية والنظرية النحوية[٢١].

(١٧) التداولية واللغة التعاقدية في البدايات الأولى للنحـو العربـي والنظريـة الفقهيـة (البحث المترجم).

(١٨) كتاب: النحو الشامل للغـة العربيـة المكتوبـة المعاصـرة بمشـاركة السـيد بـدوي وأدريان غولي[٢٢].

(١٩) عبد القادر بن عمر البغدادي[٢٣].

(٢٠) كتاب سيبويه[٢٤].

(٢١) الأسئلة غير المباشرة والكلام المروي وإشكاليته للنظرية النحوية العربية[٢٥].

(٢٢) قواعد لغة التصوف[٢٦].

(٢٣) النحاة الأندلسيون: هل هم مختلفون؟[٢٧].

(٢٤) دراسة العربية[٢٨].

(٢٥) أنواع الجملة في النحو والشريعة والفلسفة[٢٩].

(٢٦) التغير النوعي في أنماط الفعل في العامية العربية[٣٠].

(٢٧) نحو اللغة العاطفية في كتاب سيبويه[٣١].

(٢٨) تحرير كتاب طبع سنة ١٩٩٠م بعنوان "دراسات في تاريخ النحو العربي (ويحوي اثنين وعشرين بحثًا تهتم كلها بتاريخ النحو العربي وهي حصيلة مؤتمر عُقد في جامعة نيمنجن في هولندا سنة ١٩٨٧م، وقد شاركه في تحريره اللغوي الهولندي المعروف (كيس فرستيغ)[٣٢].

لا شك أن تلك المؤلفات والأبحاث تعكس وعي مايكل كارتر بأهمية اللسانيات العربية، ولاسيما نظريتها النحوية التراثية، في الفكر اللساني الحديث، ويكفي أن نطلع على مقدمة آخر تلك المؤلفات المذكورة أعلاه لنجد هذا الوعي متجسدًا في هذه الكلمات[٣٣]:

يمكن أن يشار هنا إلى نقطتين مهمتين يُعنى بهما مؤرخ اللسانيات: فالأولى أن الاهتمام العميق الظاهر الآن باللسانيات العربية هو من غير شك نتيجة لتطور اللسانيات العامة وصقْلها؛ إذ وَضع هذا التطورُ العلماءَ الغربيين في مستوى يمكنهم فيه أن يقدروا عمق التفكير اللساني العربي ودقَّته. وبغض النظر عن النواحي التي يمكن أن تكون اللسانيات النظرية قد فشلت في إنجازها في الدوائر العلمية الغربية إلا أنها أسهمت من غير شك إسهامًا موجبًا في فهمنا للسانيات غير الغربية. والنقطة الثانية أن من الواضح أنه على المستوى النظري الكلِّي أو على المستوى التطبيقي أو

كليهما هناك بعض الدروس التي يمكن للسانيات الحديثة أن تتعلمها من النحويين العرب القدماء. إن مفهوم الكليات اللسانية في الأقل ربما لا يمكن نقاشه الآن من غير أن نتأمل في التنظيرات المشابهة في اللغة العربية، حيث يجب ألا يؤكد تطبيق كثير من معطيات اللسانيات المعاصرة من غير الإشارة إلى التقاليد اللسانية التي تعد اللغة العربية أشهرها من حيث النضج الذي لا يقل عن نضج الأنظمة اللسانية المألوفة كالهندية أو الصينية. إن المهتم باللسانيات العامة الذي يعرف العربية أو هو على استعداد لأن يتعلم من العربية ما يمكّنه من فهم محتوى المقالات التي تحويها هذه المجموعة ربما يجد بعض المعلومات التي يمكن أن تقود إلى تعديل بعض آرائه التي تأسست كلها على التقاليد الغربية.

وأخيرًا، وكما سيؤكد عليه البحث المترجم، لقد ظل اسم كارتر مرتبطًا في أذهان المهتمين بتاريخ النحو العربي في العصر الحديث بالقضية الجدلية التي أثارها ابتداءً بعض المستعربين المعاصرين حول تأثر النحو العربي بالثقافات الأجنبية وخصوصًا المنطق اليوناني[٣٤]. وقد وقف كارتر موقف المدافع عن أصالة النحو العربي حينما بيَّنَ في بحثه: (في أصول النحو العربي) أن سيبويه يستعمل في "الكتاب" مجموعتين من المصطلحات، مجموعة كثيرة العدد وتتضمن المصطلحات العربية الأصل، ومجموعة قليلة العدد وتتضمن مصطلحات تتوافق مع مصطلحات يونانية الأصل. وعند حديثه عن القياس في النحو العربي يؤكد بشكل صريح أن النحو العربي لم يتأثر فيه بالقياس الأرسطي الذي يسير من الكليات إلى الجزئيات بل تأثر بالقياس الفقهي، أي أن القياس النحوي العربي كان قياسًا لغويًا فطريًا يسير على نمط القياس الفقهي الذي كان شائعا قبل ترجمة العلوم اليونانية إلى العربية. وكما يؤكد البحث الذي تترجمه الدراسة، إن وحدة المنهج والمصطلحات بين علمي "أصول الفقه"

و"النحو العربي" دليل على أن نشأتهما عربية إسلامية، يهدف الأول لضبط تعاليم الشريعة، بينما يهدف الثاني إلى ضبط اللغة؛ مما يؤكد أن العلوم الإسلامية مرتبطة بالعلوم العربية والتواصل قائم بين التفسير والفقه والنحو والشعر، ومتداخل بعضها في بعض، فكما أن العلوم الإسلامية بمنأى عن التأثير المنطقي فالنحو كذلك، وإلا فيلزم أن يقال بتأثر العلوم الإسلامية في نشأتها بالمنطق ولم يقل به أحد.

الترجمة:

التداولية واللغة التعاقدية في البدايات الأولى للنحو العربي والنظرية الفقهية*

PRAGMATICS AND CONTRACTUAL LANGUAGE IN EARLY ARABIC GRAMMAR AND LEGAL THEORY

مايكل كارتر، جامعة سدني/ أستراليا

Michael Carter, University of Sydney/ Australia

مقدمة:

من المعروف، جيدًا، أنَّ النحو العربي والفقه الإسلامي تجمعهما على نحو مميز علاقة وثيقة. فكلاهما يتحد مع الآخر؛ لتحقيق هدف مشترك يكمن – على الترتيب- في ضبط السلوك اللغوي والسلوك العام، كما أنها يقتسمان منهجًا مشتركًا؛ أعني به استنتاج القواعد من النصوص اللغوية، ومن ثم توظيف مقتضيات تلك القواعد لتحكم السلوك العام للمسلم. يكمن موضع الاختلاف بين العلمين في مصادرهما. علم النحو يعتمد على اللغة الطبيعية لمجموعة منتقاة من الأعراب الفصحاء، بينما يعتمد علم الفقه على النصوص المستوحاة من القرآن الكريم والحديث الشريف الموغلين في القداسة والأصالة. جميع النظم التشريعية، منطوقة كانت أو مكتوبة، هي رموز لغوية من نوع أو آخر، ولكن الاعتماد الكلي للفقه الإسلامي على قدر محدد من النصوص المنزلة والأحاديث النبوية- يعدُ أمرًا فريدًا من نوعه. ونظيره العلماني المعاصر هو ذلك القانون المستمد من دستور مكتوب (وضعي). وفي هذه الحالة أيضًا، لا بد – أساسًا- من فهم التشريع من خلال عملية لغوية، لا سيما وأنه غالبًا ما يكون هناك عدم اتفاق على المقاصد المرادة لواضعي ذلك التشريع (الذين هم في الغالب ليسوا على قيد الحياة).

لقد أخذ التطور المنهجي لتفسير وشرح لغة القرآن الكريم والحديث الشريف قرونًا عديدة؛ لذا فإنه، مع الأخذ بعين الاعتبار خطورة تبسيط الأمور، يمكن القول إن علمي النحو والفقه، مستفيدين من المنطق الأرسطي[٣٥]، قد مرا بمراحل تطور كان كلٌ منهما يتجاوز فيها الآخر، وكان التقدم الذي يتم إحرازه في أحدهما يجعل من عملية تقدم الآخر أمرًا ممكنًا. يستعرض هذا البحث أوجه التشابه العامة في منهج

دراسة اللغة في بدايات النظريتين النحوية والفقهية، ويركز خاصة على حس سيبويه العملي، وإدراكه المبكر للمقتضيات الفقهية للصيغة النحوية. يُتبع ذلك بعرض موجز لبعض المشكلات النحوية والفقهية التي نوقشت في مرحلة وسطى في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، ثم يخلص هذا البحث إلى سرد عدد من خصائص المنهج الفقهي التي تعود إلى أفكار لوحظت أولا من قبل سيبويه، ثم استوت على سوقها بعد نضوج علم أصول الفقه.

توطئة:

إن التأويل في الفقه الإسلامي، وبغض النظر عن قدسيته، يسير وفق الحقيقة البديهية التالية: إن لغة النصوص المقدسة تتوافق كليا ومبادئ الخطاب الإنساني. فيما يلي، نصان قصيران مقتبس أحدهما من سيبويه (ت ١٨٠هـ/ ٧٩٦م)، والآخر من الإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ/ ٨٢٠م، ربما ولد في السنة نفسها التي ولد فيها سيبويه)- يوضحان جليًا أن هذه الحقيقة كانت راسخة منذ وقت مبكر من ولادة علمي النحو والفقه:

عباد الله كلموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون (الكتاب، باريس[٣٦]. ١: ١٣٩/ بولاق. ١/ ١٦٧)[٣٧].

والنص نفسه نجده تقريبًا عند الشافعي:

فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها[٣٨].

جاء نص الشافعي في معرض الحديث عن الخلاف حول إمكانية وجود الكلمات الأعجمية في القرآن الكريم، بينما جاء نص سيبويه عند الحديث عن قضية نحوية تخص بعض العبارات النكرة من مثل "سلامٌ عليك" الأكثر شيوعًا في الاستعمال من المعرفة (السلام) عند العرب، ولاسيما عندما ترد في القرآن الكريم.

يعد الإمام الشافعي المنظر وعالم الفقه الأول[٣٩] الذي أولى عناية خاصة بالمناحي اللغوية في علم الفقه منذ أن نذر علماء النحو والفقه أنفسهم وبشكل صارم وملحوظ لجعل لغة النص الديني متماشية مع المفاهيم اللغوية للغة العربية العادية[٤٠]. بالنسبة لسيبويه، الكلام عنده حوار بين المتكلم والسامع المطالب كلاهما أن يكون كلامهما متوافقاً مع معايير صحة الكلام واستقامته[٤١]. وأما بالنسبة لعلماء الفقه، فإنه لا حوار مع الله إلا من خلال النص المكتوب الذي تكلم به هو أو نبيّه، ولكنهم مع مرور الوقت طوروا نظامًا تفسيرًا أدوا فيه دور المستمع الصامت لمتكلم بلسانهم وبمثل معايير وشروط الكلام الطبيعي.

ولتحقيق هذا الغرض، قاموا ببناء آلية تأويلية عرفت بـ" أصول الفقه" التي – كما أشار Ali (2000)- تظهر توافقًا مدهشًا في كثير من التفاصيل مع أحد فروع اللسانيات الحديثة المعروف باللسانيات التداولية (Pragmatics). الفكرة الرئيسة للبحث الحالي هي إثبات أن نوعًا من اللسانيات التداولية يمكن تمييزه في تحليل سيبويه للكلام قبل وقت طويل من تدوين علم أصول الفقه، إضافة إلى توضيح أن هذه المقاربة للغة مرت على الأقل بمرحلتين[٤٢] قبل أن تتبلور في نوع جلي من اللسانيات التداولية الذي يمكن رؤيته في مصادر Ali[٤٣].

التداولية بين سيبويه وغرايس:

تماشيًا مع أهداف البحث الحالي، سيُتناول مصطلح أصول الفقه في مفهومه العام، أي قواعد استنباط الأحكام الفقهية من النصوص الدينية[٤٤]. أما ما يخص التداولية، فهنا تعريف حديث لها يعكس مدى التقارب مع الأصوليين وكأنه قد كتب من قبل أحدهم، أو حتى من قبل سيبويه نفسه:

دراسة اللغة من وجهة نظر مستعمليها، مع التركيز على الخيارات التي يلجؤون إليها والقيود التي يضعونها في استعمالهم اللغة إبان التواصل الاجتماعي وآثار ذلك الاستعمال على المخاطبين في عملية الحوار [..] وتشمل تلك الآثار المظاهر الإشارية والاستلزام الحواري، والاقتضاءات وأفعال الكلام وبناء الخطاب. [...]. كما عرفت التداولية بأنها دراسة المبادئ وممارسة عملية التخاطب المنجز بما تشتمل عليه من مظاهر استعمال اللغة والفهم والملاءمة [أي، ملاءمة الخطاب للموقف التّواصلي] (Crystal، ٢٠٠٠، مادة التداولية Pragmatics).

قراء الكتاب سيجدون جميع تلك الأفكار مألوفة لديهم جدًا. بعض تلك الأفكار سيوضح لاحقًا، ولكن لا بد أولا من توضيح بعض العناصر الأساسية التي قامت عليها المدرسة التداولية التي وضعها غرايس Grice.

يعتبر غرايس (Grice 1989) الكلامَ (على عكس الكتابة التي لا تتلاءم بسهولة مع نموذج غرايس ونموذج سيبويه كما سيأتي)-نشاطًا تعاونيًا يتسم بكونه هادفًا وعقلانيًا، فيه يفهم المشاركون بعضهم الآخر بواسطة عملية "استلزام حواري" مبنية بشكل منطقي. الكلام، عنده، أشبه ما يكون بالعملية التعاقدية ومحكوم بأربع قواعد (Grice، ١٩٨٩، ص٢٦):

قاعدة الكم:

١- اجعل مساهمتك إخبارية بالقدر المطلوب (لغرض الحوار الجاري)[٤٥].

٢- لا تجعل مساهمتك أكثر إخبارية مما هو مطلوب[٤٦].

قاعدة النوع:

١- لا تقل ما تعلم يقينًا كذبه.

٢- لا تقل ما ليس عندك عليه دليل بيّن.

قاعدة العلاقة:

١- كن ملائمًا[٤٧].

قاعدة الكيف:

١- لتتحرز من الإجمال.

٢- لتتحرز من الغموض.

٣- لتتكلم بإيجاز(لا تطنب أكثر من اللازم).

٤- لترتب كلامك.

جميع هذه المبادئ يمكن أن تكون متجاهلة أو مستخفًا بها عن عمدٍ، أحيانًا لأسباب شخصية كالرغبة في التضليل أو الخداع، وأحيانًا أخرى لأغراض بلاغية كالمبالغة والتهكم، والغموض المتعمد.. الخ[٤٨]، علمًا أن هناك، وغالبًا ما يكون، فرق بين المعنى الحقيقي للكلمات المنطوقة (معنى الجملة) وبين معناها المراد عند التلفظ بها (معنى القول)[٤٩].

لدى لارشيه Larcher (١٩٩٨) صيغة مبكرة من التداولية مطبقة على مقولة "الإنشاء" (أي من مثل المقولات الإنجازية لجملة من نوع "قبلتُ هذا النكاح[٥٠]" التي هي نوع من التداولية الشهيرة التي جاء بها العالمان جون سيرل J. Searle وجون أستين J. Austin: "كيف ننجز الأشياء بالكلمات" (ينظر لارشيه حول تفاصيل المراجع)، والتي بنيت عليها قواعد غرايس لاحقًا. وعلى أية حال، فقد تم الاستشهاد بغرايس على الأقل مرتين في السنوات القليلة الماضية في بحوث عن اللسانيات العربية. متوكل (١٩٩٠، ٢٢٣)، الذي اقتبس جميع قواعد غرايس السابقة، اقتصر على دراسة

التداولية عند السكاكي (ت. ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، أحد علماء الكلام المتأخرين نسبيًا، وتلك الدراسة لن تمنعنا – اتفاقًا مع سيمون Simon (١٢، ١٩٩٣)- من ملاحظة أن علم البلاغة، آخرَ العلوم الإسلامية ظهورًا، لم يصبح علمًا مستقلًا، إلا بعد أن استوى علم النحو وأصول الفقه على سوقهما بتحقيقهما الكمال المنهجي.

وكان الاستخدام الثاني لقواعد غرايس في عقد بُبوروزان Buburuzan (١٩٩٣، ٤٢٤) مقارنة بينه وبين سيبويه. لقد فسرت بُبوروزان التركيبين النحويين: "نعم الرجل عبدالله"، و"عبدالله نعم الرجلُ" (الكتاب، باريس. ١/ ٢٥٩ بولاق. ١/ ٣٠٠) بوصفهما تعابير مركبة يفترض فيها الجزء الثاني سؤالًا من قبل السامع، بينما يخالف فيها –كما زعمت– الجزء الأول قاعدة الكم عند غرايس؛ إذ يتطلب إجابة وافية للسؤال: "من؟" أو "ماذا عنه؟"[٥١]/ [٥٢]

التحليل نفسه أو قريب منه نجده عند سيبويه في حديثه عن التركيب النحوي لـ: (مررت برجلين مسلمٍ وكافرٍ/ مسلمٌ وكافرٌ). الذي يُترك فيه الخيار للمتكلم لأن يختار بين حالة الجر موافقة للصفة، أو حالة الرفع على اعتبار "مسلمٌ وكافرٌ" خبرين لمبتدأ محذوف. وذلك، كما لاحظ سيبويه (الكتاب باريس. ١٨٢: ١/ بولاق. ٢١٤: ١)؛ لأن المتكلم يحاول أن يستبق السؤال الذي من الممكن أن السامع سيطرحه، إما "بأي ضرْبٍ مررتَ؟ أو فما هما"؟[٥٣].

سيبيويه، كغرايس، شديد الاهتمام بدور المخاطب في العملية الحوارية، وهناك الكثير من المواقف اللغوية التي فيها يؤثر المخاطب على خيارات المتكلم. فيما يشبه تركيب لا... ولا... neither [...] nor [...] construction في اللغة الإنجليزية، من القبيح قول: "مررت برجلٍ لا فارسٍ" من غير إكماله بـ" ولا شجاعٍ"، أو ما شابهه؛ وذلك لأنه "جوابٌ لمن قال، أو لمن تجعله ممن قال: أبرجلٍ شجاع مررتَ أم بفارسٍ؟"

(الكتاب باريس. ٣١٣: ١/ بولاق. ٣٥٨: ١). وعلى المنوال نفسه، فإن المخاطب الذي يجيب بـ"لا" لسؤال العطف التخييري: أزيدٌ عندك أم بِشرٌ؟ عندما يكون معروفًا أن المسؤول قد لقي أحدهما- يخالف العقد التواصلي بشكل كبير؛ لأن إجابته مصنفة –عند سيبويه- من المحال، أي، "[أخلاقيًا] خطأ، [ودلاليًا] منافية للعقل" (أي منطوق متناقض في ذاته، ومن هنا لا معنى له) (الكتاب باريس. ٤٣٢: ١/ بولاق. ٤٨٣: ١). وكما يبدو أنه تعزيز لأهمية المخاطب، يعلق سيبويه على نحو "هلا أفعلُ" قائلا: "وربما عرضت هذا على نفسك فكنت فيه كالمخاطب" (الكتاب باريس. ١١٤: ١/ بولاق. ١٣٦: ١).

هناك أيضًا نقاش حول ما يقارب لغة الجسد body-language، وذلك عندما يصف سيبويه كيف أن رؤية صورة شخص غير معروف- تكون علامة لك (أو "آية" وفق مصطلحات سيبويه) على معرفة ذلك الشخص، وعندئذٍ تتعجب قائلا: "عبدالله وربي". ليس هذا فحسب، بل إن تركيب أسلوب التعجب المحذوف منه المسند إليه نفسه-يمكن النطق به عندما تكون العلامة التي عرف بها المتكلمُ شخصًا هي صوته، أو رائحته، أو ببساطة سماع شيء عنه (الكتاب باريس. ٢٤٠: ١/ بولاق. ٢٧٩: ١)[٥٤].

كما سيوضح لاحقًا، زيادةً على المتكلم والمخاطب، فإن السياق المادي أيضًا وثيق الصلة لغويًا. سيبويه وغرايس كلاهما يرغب في تقديم مادتهما اللغوية على شكل مجموعة أقوال في مقام موصوف. عند غرايس هي، بلا شك من نسج الخيال، وغالباً ما تنطوي على السيارات المعطلة والحفلات الفارهة، ولكنها عند سيبويه ربما تعكس ملاحظات واقعية، من مثل:

ومما ينتصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره، أن ترى الرجل قد قدم من سفر فتقول: خيرَ مقدم، [...]. أما النصب فكأنه [المتكلم] بناه [نحويًا] على قوله (قدمتَ)، فقال: قدمتَ خيرَ مقدمٍ، وإن لم يسمع منه هذا اللفظ، فإن قدومه ورؤيته إياه [لغويًا] بمنزلة قوله: قدمتَ (الكتاب باريس. ١١٤: ١/ بولاق. ١٣٦: ١).

التلاقي مع التداولية الغرايسية واضح هنا؛ إذ ليس المتكلم هو وحده المنخرط في نشاط تعاوني مع المخاطب في سياق واقعي، بل إن السياق نفسه يمكن أن يصبح المكون النشط في الشكل النحوي للقول (لغرض المقارنة ينظر Carter، ٢٠٠٢، ص٧، حيث نوقشت هناك هذه الجزئية).

وبالطريقة نفسها[٥٥]، يمكن حذف أداة النداء عندما يكون المخاطب قريبًا من المتكلم (الكتاب، باريس. ١٠٤: ١/ بولاق. ٣١٦، ١٢٥: ١)، ويمكن كذلك حذف المدعو له في أسلوب الدعاء إذا كان واضحًا من السياق (الكتاب باريس. ١٣١: ١/ بولاق. ١٥٧: ١)، ويبقى الخيار متروكًا للمتكلم في تسميته لغرض التوكيد. وكذلك (الكتاب باريس. ١٠٧: ١/ بولاق. ١٢٨: ١)، باستطاعة المتكلم حذف الفعل والاقتصار فقط على اسم الشخص، عندما يرى أحدًا على وشك أن يُقتل أو يؤذى. وهذا الأسلوب شائع في أسلوب التحذير نحو: الجدارَ (أي، احذر، أو لا تقرب الجدار)، ونحو: الأسدَ [لا تقرب الأسدَ]، ومثلهما عندما يصرخ أحدهم فيقول: الطريقَ الطريقَ [تنح عن الطريق]! [تنحَ عن الطريق][٥٦]![٥٧].

من الملامح البارزة للكتاب، ذلك الكم الهائل من المفاوضات التجارية وإبرام العقود التي يبدو غالبها عاديًا وبسيطًا، غير أنها تحكي لنا كيف كان الأعراب في سوق المربد منشغلين مع أسعار الغنم، والإبل، والقمح[٥٨]، وكان كثير منها تعاقديًا صرفًا في الشكل والمحتوى، ومنطويًا على عقود، وديون، وبيع بضائع وممتلكات، وشهادات، وودائع، ومسروقات، بل ونشاط فقهي أيضًا. تأمل القائمة التالية (Carter، ١٩٧٢، ص٧):

إن في ألف درهم لَمَضْربًا (باريس. ٩٩: ١/ بولاق. ١١٩: ١)، بيعَ الملطى لا عهد ولا عقد (باريس. ١١٥: ١/ بولاق. ١٣٧: ١)، تبيعُ الدار حدٌ منها كذا وحدٌ منها كذا (باريس. ١٣٧: ١/ بولاق. ، ١٦٥: ١: ينبه هنا إلى أن بيع دار ذات أبعاد غير محددة لا يجوز شرعًا، على الأقل عند الأحناف، انظر هاملتون Hamilton، ١٨٧٠، ص٢٥٧)[٥٩]، له علمٌ علمُ الفقهاءِ (باريس. ١٥١: ١/ بولاق. ١٨١: ١)، له علي ألفُ درهم عُرفًا (باريس. ١٦٠: ١/ بولاق. ١٩٠: ١)، بعتُ الشّاءَ شاةً ودرهمًا، وقامرتُهُ درهمًا في درهمٍ، وبعتُهُ داري ذراعًا بدرهمٍ، الخ (باريس. ١٦٥: ١/ بولاق. ١٩٦: ١)، هذا درهمٌ وزنًا (وغيرها) (باريس. ٢٣٥: ١/ بولاق. ٢٧٥: ١)، إنّ ألفًا في دراهمك بِيضٌ (باريس. ٢٤٥: ١/ بولاق. ٢٨٥: ١)، كم منكم شاهدٌ على فلانٍ (باريس. ٢٥٦: ١/ بولاق. ٢٩٧: ١)، عليه شَعَرُ كلبين دينًا (باريس. ٢٥٧: ١/ بولاق. ٢٩٨: ١)، الوضيعةُ أيها البائعُ (باريس. ٢٨٤: ١/ بولاق. ٣٢٦: ١)، قضيةٌ ولا أبا حسنٍ =الخليفة علي (باريس. ٣١٠: ١/ بولاق. ٣٥٥: ١)، آتي الأميرَ لا يقطعُ اللصّ، (باريس. 402: ١/ بولاق. 453: ١)، أما جهد رأيي... (باريس. ٤١٨: ١/ بولاق. ٤٧٠: ١). عبارة (إن شاء الله) التي يتجنب بها الوقوع في اليمين المحتمل من الممكن أن تذكر هنا أيضًا. هذه العبارة تسمى عند سيبويه، وفي المصطلحات الفقهية اللاحقة: (استثناء) (باريس. ٣٩٩: ١/ بولاق. ٤٨٨: ١، وانظر أيضًا كارتر ١٩٧٢: ٩٠، حاشية ٢).

بالإضافة إلى مواد تجارية وفقهية (وهذا ليس حصرًا، فقد تجوهلت المواد الهامشية من مثل: هل عندك شعير أو بر أو تمر؟ على الرغم من أنها قد تعكس سياقًا تجاريًا، ينظر الكتاب، باريس. ٤٣٤: ١/ بولاق. ٤٨٥: ١)):

عرض البضاعة (باريس٦٤: ١/ بولاق. ٧٦: ١ وقد كان حتى في تلك الأيام من الأفضل الشراء من أعلى البضاعة المعروضة لا من أسفلها)، تعابير الزمن (لعقود البيع، باريس ١/ ٩٠-٩٣/ بولاق. ١/ ١١٠-١١٤، ٢٠٨)، الدعوى (باريس٩٤: ١/ بولاق. ١١٤: ١)، اختلاف الأسعار (باريس ١/ ١٢٢، ١٧٠/ بولاق. ١/ ١٤٧، ٢٠٠)، الربح، الصدقة، الزكاة، تسليم الحسابات (باريس٤٣٤: ١ح/ بولاق. ١٩٦: ١)، الأوزان والأقيسة (باريس١٤١: ١ح، ١٨٣/ بولاق. ٢١٦: ١، ٢٩٢)، استبدال البضاعة (باريس٢٤٥: ١/ بولاق. ٢٨٥: ١)، الإدلاء بالشهادة (باريس ٤٢١: ١/ بولاق. ٤٧٣: ١)، إطلاق التذكير على ما يقع على المؤنث والمذكر ككلمة "العبيد" (باريس١٨٠: ٢/ بولاق. ١٧٤: ٢).

النتائج الفقهية للخيارات النحوية:

سيناقش هنا تحديدًا، وبشيء من التفصيل، نوعٌ تعاقدي من الكلام ناقشه سيبويه في تحليل طويل جاء في أربعة فصول (الكتاب باريس. ١/ ١٦٥-١٦٨، بولاق. ١/ ١٩٥-١٩٨). يدور هذا النوع حول الكيفية التي تقال من خلالها أثمان البيوع. لقد حاول سيبويه كشف الطريقة التي تعقد بها الصفقات، بادئًا وبشكل ملحوظ مع التركيبين النحويين لـ" كلمتُه فاه إلى فيٍّ و "بايعته يدًا بيدٍ" (أي، نقدًا)، حيث يجب فيهما النصب؛ لأن المعنى الحرفي هنا غير مراد، وإنما المراد أنه بايعه فورًا في موقع البيع، ولا يهم أكان المخاطب قريبًا أم بعيدًا[٦٠]. وبتعبير آخر، شرعية المعنى المراد مختلفة عن المعنى الظاهري للجملة: عند نطق هذه الكلمات بهذا الشكل، فإن الحتمية الشرعية [للبيع] قد تمت بغض النظر عن معانيها الحرفية. وهذا يقود إلى سلسلة كاملة من التعبيرات التجارية، من مثل: بعت الشاءَ شاةً ودرهمًا، قامرته درهماً في درهم، بعته داري ذراعاً بدرهم، وبعت البر قفيزين بدرهم، وأخذت زكاة ماله درهماً لكل

أربعين درهماً، وبينت له حسابه باباً باباً، وغيرها من التعبيرات التي توضح أن الشيء وقيمته (أي، شاةً وردهمًا) يجب أن يذكرا معًا، وإلا فإن المعنى لا يصح شرعًا. وسيبويه يعني بهذا أن المعنى لا يصح في حالة نية العقد بدليل صحة هذه التعبيرات معنىً عند حذف "القيمة" شريطة انتفاء القصد التعاقدي، نحو: بعتُ شائي شاةً شاةً، بعته داري بذراع، ولكن [عند حذف القيمة] سيظن المخاطب أنك بعت شياهك دفعة واحدة، وأن الدار كلها ذراع، وهكذا(٦١).

غير أنه، وكما لاحظ سيبويه، كثيرًا ما تحذف القيمة أو نوع المباع في الكلام العادي، فيقول الناس: كان البر [يباع] قفيزين، طارحين القيمة، أو يقولون: البر بستين، طارحين نوع القيمة [درهمًا]. ويرجع سيبويه سبب عملهم هذا إلى أنهم في المثال الأول يعلمون في صدورهم أن (بدرهم) مقصود؛ لأن الدرهم هو الذي تسعر عليه الأسعار عندهم، وكأنهم بذلك يجيبون السؤال: ما مقدار ما تحصل عليه مقابل الدرهم؟ بينما في المثال الثاني هم والمخاطب جميعهم يعرفون ماذا يعنون، وكأن أحدًا كان قد سأل: ما قيمة كيلة البر؟ فتلقى الإجابة التالية: "الكيلة (أي القفيزين) [تباع] بستين [درهمًا] (باريس. ١٦٦: ١/ بولاق. ١٩٦: ١). ينصحنا سيبويه في هذا الأمر وما أشبهه بإجرائه كما أجرته العرب، وإن كان الخليل قد عقّد الصورة نوعًا ما بإشارته إلى تحليل بديل(٦٢).

مقاربة سيبويه التداولية هنا تبرهن على نفسها بنفسها. إنه يضع عملية التحاور في واقع حي مفترضًا جميع قواعد غرايس، وهو يفرق بين المعنى المراد والمعنى الظاهري، كما أنه يأخذ في عين الاعتبار الخصائص النحوية فيما يتعلق بالحالات الخارج لغوية(٦٣) ومقاصد المشاركين. لو أخذت جملة خبرية من مثل يجوز أن تقول: بعت الدار ذراع بدرهم (باريس. ١٦٦: ١/ بولاق. ١٩٧: ١) خارج سياقها هناك

[في الكتاب]، لما وُجد طريق لمعرفة ما إذا كانت عملا فقهيًا، وكأنه من الناحية الفقهية جائز[٦٤] القول [في صيغة تعاقدية ملزمة] "أنا أبيع بموجب... الخ."، أو كانت عملًا نحويًا، وكأنه، وفقًا لقواعد النحو، من الجائز أن تقول: "أنا أبيع بموجب... الخ"[٦٥]. حينما ناقش سيبويه إمكانية حالة الرفع في (درهم)، كما اقترح الخليل، عندها عرفنا فقط أن الحديث عن النحو. لقد كان الهدف، على كل حال، هو تحديد النتائج الشرعية والفقهية للخيارات النحوية. وإلا لماذا يثير الأمر من الأساس؟

المنطق وعلماء النحو والفقه:

لقد دخل البنية المنهجيةَ في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي مفهومٌ مستعارٌ من منطق أرسطو، مفاده أن العلم يجب أن يبنى بشكل منطقي، وأن تنفذ مباحثه بشكل منظم. ذلك هو الترتيب المنطقي. لقد كان هناك، ولحوالي قرن ونص القرن، قدر كبير من التجريب قبل أن تصل العلوم إلى النقطة التي يمكن عندها تعريفها وتصنيفها، لا سيما في أعمال من مثل مفتاح العلوم للخوارزمي، المؤلَّف بين سنتي ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م و ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م. ستُذكر هنا مناقشتين من تلك الفترة بوصفهما برهانًا على المرحلة الانتقالية في تطور علمي النحو والفقه.

لقد نقل ابن ولّاد (ت. ٣٣٢/ ٩٤٣) خلافًا، أثاره المبرد ابتداءً (ت٢٨٥/ ٨٩٨)، حول الوضعية الدلالية لأفعال الأمر والنهي فيما إذا كانا يلتقيان منطقيًا أو لا (أي، هل الأمر مساوٍ للنهي في النهي عن عمل الضد؟ وهل النهي مساوٍ للأمر الموجب لعمل الضد؟ وهنا نص كلام ابن ولاد (الانتصار، ص ٤٢): "كل أمر أمرت به فأنت في المعنى ناهٍ عن خلافه [...] فإذا نهيتَ أمرتَ بخلافه"؛ ولهذا كان التعجب المثبت حاذاراك يحتوي على معنى النفي "لا تقترب". احتمال كون هذا الجدل يعود إلى

الرواقيين ليس مدار الاهتمام الرئيسي هنا[٦٦] (قارن Versteegh، ١٩٧٧، ص ١٨١)، وإنما المهم هنا هو ملاحظة كيف أثارت هذه البيئة الفكرية مثل هذا الجدل في وقت لم يرَ فيه علم أصول الفقه النور بعد. لقد كان المبرد من بين أوائل النحاة القدامى الذين كشفوا عن الأثر المباشر للأفكار اليونانية قبل أن يكون هناك وثائق يعتمد عليها[٦٧]؛ مما يرجح أن تكون تلك الأفكار قد انتشرت بشكل عفوي، ربما عن طريق العلماء المسيحيين لنظرائهم المسلمين. ابن ولاد نفسه متردد جدًا، وهو يؤكد بشكل قطعي أنه لا يمكن القطع نفيًا أو إيجابًا بخصوص دلالة أفعال الأمر، إلا من خلال الاستدلال الذي به نقرر ما إذا كان فعل الأمر يأمرنا بفعل أمر أو ينهانا عن فعل ضده.

تتطابق لغة وأسلوب هذه الحجة مع ما نجده عند علماء أصول الفقه حين تناولوا هذه القضية في وقت لاحق من ذلك القرن. نجد عند الباقلاني (ت. ٤٠٣/ ١٠١٣، وهو من أعظم المؤيدين لمفهوم التكامل) في كتابه التقريب (٢/ ١٩٨-٢٠٧) أن النقاش حول هذه القضية أخذ يتسع في وقت بلغت فيه الأدوات النحوية والمنطقية مرحلة متقدمة من النضج، وأظهر فيه مستوى الحجاج أن جدل أرسطو قد استوعِب بالكامل. هناك قدر لا بأس به من السفسطة من قبل معارضي الباقلاني الذين يدعون، فيما يدعون، أن أفعال الأمر والنهي تختلف من حيث الصياغة، ومن هنا لا يمكن أن تكون مكملة لبعضها البعض. لقد ربط الباقلاني سفسطة معارضيه مع برهنة صحة الشيء من خلال إثبات فساد نقيضه، محتجًا به عليهم ومن خلال معاييرهم بأن الأمر المثبت يمكن تعريفه بأنه غير ترك ضده، مختتمًا [رده] بحجة عملية تكمن في أن معاني أفعال الأمر والنهي تدرك بشكل تلقائي من الكلمات نفسها من دون الحاجة إلى نوع من الاستدلال المنطقي (بينما قد لا يعد هذا نوعًا من التداولية، إلا أنه حقًا

من قبيل اختلاف الآراء في عملية الاستلزام الحواري، ويعكس أن طرق الاستدلال كانت مسألة خلافية بين الأصوليين، ينظر في ذلك Ali (٢٠٠٠)، وخاصة الفصل الخامس). وهكذا نرى أن هناك خطًا واضحًا من التقدم منذ تعريف سيبويه البسيط للأمر والنهي بوصفهما أصناف نحوية (باريس. ١٠٥: ١/ بولاق. ١٢٦: ١-٧)، مروراً بمعالجة ابن ولّاد الجدلية لهما، وانتهاءً بالحجج المنطقية المنظمة كليًا للباقلاني ورفاقه الأصوليين.

بعبارة أخرى، أصبح لدينا الآن نظرية بينما كان لدينا في السابق مجرد معطيات. وفي ظل هذه الظروف، أصبح هناك اتجاه عام ينتصر للنظرية على حساب المعطيات. ولعل أبرز مثال على ذلك معالجة كلمة (كذا) التي لا تعدو عند سيبويه أن تكون أكثر من كلمة مبهمة العدد (كناية يكنى بها عن أي عدد، مثلها في ذلك مثل كلمة "فلان" التي تشير إلى أي شخص)، وتتصرف [نحويًا] كـ"كم الاستفامية" في طلبها اسمًا منصوبًا يكملها: كذا وكذا درهمًا ((باريس. ٢٥٦: ١/ بولاق. ٢٩٧: ١).

مع حلول نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، أصبح لدينا نظام أكثر تعقيدًا، وكان علامة فارقة لذلك القرن، وذلك عندما اقترح الرماني (ت. ٣٨٤/ ٩٩٤) في شرحه للكتاب أن كلمة (كذا) وحدها تدل على الأعداد من ١١-٢٠؛ لأن تلك الأعداد تعامل كأعداد مفردة، بينما (كذا وكذا) تدل على أعداد مركبة من ٢١ فأكثر[٦٨]. كان الرماني مشتهرًا بمبالغاته المنطقية الصارمة في تجاربه مع اللغة، ولكنه لم يذهب أبعد مما كان باستطاعته أن يفعل مقارنة بآخرين كابن معطي (ت. ٦٢٨/ ١٢٣١، الفصول الخمسون، فصل ٢٣، لمراجع إضافية ينظر ص ٢٤٤-٢٤٥) الذي نجد عنده نظامًا مكتملًا يقارب بالضبط نحو الأعداد، نحو:

كذا وكذا دراهم = من ٣ إلى ١٠ درهم.

كذا وكذا درهمًا = من ١١ إلى ٩٩ درهمًا.

كذا وكذا درهمٍ = من ١٠٠ درهم فأكثر[٦٩].

يرتبط هذا النظام المتكلف والمصطنع، بشكل مدهش يكاد يكون غير مسبوق، بالأحناف وكذلك بالكوفيين (الذين لا يختلفون عنهم كثيرا في هذا السياق)، وقد بقي متماسكًا على الأقل حتى القرن التاسع عشر في عمل ناصف اليازجي (ت. ١٨٧١، في كتاب نار القرى، ينظر Fleischer ٥٦٨: ١ لمزيد من المراجع). ويدل ذلك على أن العلوم اللغوية والفقهية أصبحت بشكل متزايد مجردة، وخارج حدود الاستخدام الفعلي. ولا يبدو من المرجح أن أبا حنيفة نفسه يربط صراحة نحو (كذا) مع نحو الأعداد بهذه الطريقة، ولكنه يتوافق مع ما اشتهر به الأحناف من مبالغة مطردة في التفكير المتكلف، الأمر الذي يمكن أن ينظر إليه على أنه نموذج جيد لما يمكن أن يحدث للحكم الفقهي عندما يعتمد على المنهجية أكثر من اعتماده على الكلام الفعلي. لم تكن اللغة العربية الفصحى لغة التخاطب في ذلك الوقت، ولكن الأصوليين استطاعوا توظيف قواعد لغةٍ غير مستعملة في مستوى لغة التخاطب اليومي.

نقاط التلاقي بين سيبويه والأصوليين:

ولعمل الشيء نفسه، افترض الأصوليون أن طريقهم الوحيد للتعامل مع النصوص كان من خلال الاستعمال الطبيعي للغة. فيما يلي بعض التوضيحات التي تعكس لنا التشابه الأصيل بين مفهوم سيبويه للكلام، ومقاربة الأصوليين للنص الديني.

كما أشير إليه سابقًا، كلام الله لابد أن يتوافق [تفسيرًا] مع القواعد الأساسية لنحو اللغة العربية. بالإضافة إلى ذلك، وكما وعاه وفهمه الأصوليون، (لغة النص القرآني)[٧٠] ينبغي أن تتماشى وطرق التواصل البشري حتى تدرك وتفهم. ومن هنا، سعى الأصوليون، كما سيبويه، إلى مراعاة المعنى فيما يتعلق بدوافع المتكلم (الله، أو الإنسان)، والسياق الحياتي الواقعي الذي جاء فيه الخطاب. ولعل أبرز مثال عند سيبويه يوضح اعتماد المعنى على الدوافع والسياق، جملة: ما أتاني رجلٌ، التي ربما تعني "لا رجل (أبدًا) أتى إليّ"، أو "لا رجل واحدًا أتى إليّ، (بل أكثر)"، أو "لا رجل (قوي) أتى إليّ، (بل ضعيف)"، أو "لا رجل أتى إليّ، (بل امرأة)" (باريس. ٢٠: ١/ بولاق. ٢٧: ١)[٧١]. لا توجد أدلة لغوية قاطعة على نحو يرشدنا إلى المعنى الذي يدور في ذهن المتكلم. تكمن الأدلة فقط خارج السياق اللغوي، وفي هذه الحالة تتوقف [تلك الأدلة] عند أي سؤال سيجيب عليه المتكلم؛ وهذا يقودنا إلى معرفة السبب الذي جعل سيبويه يقضي وقتًا طويلا؛ ليقدم لنا شروحًا نفسية للخيارات التي ربما تكون في ذهن المتكلم. بعد قرون لاحقة، لجأ علماء أصول الفقه لعمل الشيء نفسه في فهم كلام الله، محاولين فهم مقاصده من خلال فقط افتراض أن الله يخاطب عباده بلغتهم وبطريقة واضحة وعقلانية وفي ظل ظروف عادية[٧٢].

تقرير هذا الأمر عند سيبويه أمر مفروغ منه؛ فالمخاطبون في الاقتباس التالي، هم الناس أنفسهم المخاطبون في كل خطاب يومي، ولكن في هذه المرة (اللهُ) هو من يخاطبهم:

ولما قال [الله]: "حرمت عليكم أمهاتكم" حتى انقضى الكلام، علم المخاطبون أن هذا مكتوب عليهم، مثبت عليهم، وقال: كتاب الله، توكيدا..." (باريس. ١٦٠: ١/ بولاق. ١٩١: ١، سورة النساء: ٢٣-٢٤).

اللافت للنظر في الاقتباس السابق هو محاولة التعليل لذكر الحكم المكتوب [كتاب الله]: الكتابة لا تتناسب والتحليل التداولي لسبب بسيط، وهو أن المرسل في الكتابة عادة ما يكون غائبًا. ليس هناك أي عملية تخاطب، فضلا عن أن يكون هناك أي استلزام حواري، من غير حضور طرفي الحوار [المتكلم والمخاطب]. يندر ذكر الكتابة في الكتاب، وإن ذكرت فبشكل ثانوي وهامشي تمامًا. أما بالنسبة للأصوليين، فلم تكن الكتابة أيضًا وسيلة تواصل طبيعية، بل كانت حالة خاصة من أفعال الإيمان في المستقبل، من مثل الزراعة، والإقراض، أو الاقتراض، وأفعال أخرى تتطلب استصحاب الحال (أي، أن المتلقي عادة ما يكون على قيد الحياة، وقت وصول الرسالة له (انظر Ali ٢٠٠٠، ص٨٠)[٧٣]. علينا هنا أن نسجل الإعجاب بالأصوليين؛ لالتزامهم في اعتقادهم أن كلمات الله ورسوله من الممكن فهمها من خلال النصوص المدونة: كانت هذه المفارقة، إلى حد كبير، معالجة من خلال آلية حفظ النصوص عن ظهر قلب؛ لأنها، عندما تحفظ في الذاكرة، تتوقف عن كونها مجرد وثيقة مكتوبة (مصحف، كتاب)، وتصبح حدثًا مرئيًا منطوقًا (قرآن، حديث) لا يختلف – عصبيًا- عن الخطاب المتذكر.

ويخاطب الله عباده عندما يخاطبهم [في كتابه] بنفس أسلوب خطابهم لبعضهم البعض، فيحذف في كلامه؛ لعلمه بوضوحه عندهم: يقول [تعالى] في سورة النساء، آية ١٨٠: "وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ". يشرح سيبويه ذلك بقوله: إن الله حذف البخل المفعول الأول للفعل "يحسب" اجتزاء بعلم المخاطَب، لذكره يبخلون (باريس. ٣٤٧: ١/ بولاق. ٣٩٥: ١)[٧٤]. أي شخص كثير المدارسة للتفسير، سيكون مألوفًا لديه هذا النوع من المنهج في تفسير القرآن من خلال التفسير بالتقدير، وليست مصادر الأصوليين استثناءً في استعمال هذا الإجراء.

النقطة الثانية التي يلتقي فيها سيبويه مع الأصوليين هي "قرينة السلامة العقلية". يفترض سيبويه، وإن لم يصرح بذلك، أن المتكلم لديه القدرة العقلية على صياغة الفكرة وإيصالها بنجاح. لقد كانت هذه الفكرة مضمنة في مصطلحه "مستقيم" المستعمل للحكم على الأقوال التي تكون مفهومة تماما في معانيها المقصودة، وكذلك في مصطلح "مراد" المستعمل للحكم على معنى الأفعال الكلامية. في المقابل، قصر الأصوليون هذه القرينة على مبدأ شرعي واضح. لقد كان عليهم أن يقرروا من هو الذي يُسمح له أن يتكلم [كلامًا يستحق أن يحمل على وجهٍ ما]، وكان عليهم تحييد أولئك الذين ليس لهم صفة شرعية؛ لعدم قدرتهم على التعبير [وفهم فحوى الخطاب فهمًا كاملًا] من مثل الرضع والمجانين. ومن هنا، وضعوا الشروط التالية للكلام الصالح شرعًا (مقتبس بتصرف من Ali ٤٢: ٢٠٠٠، نقلا عن الآمدي، ت. ٦٣١/ ١٢٣٣)[٧٥]:

١. يجب أن يكون النطق به مقصودًا؛
٢. أن يقصد به مخاطبة السامع؛
٣. أن يكون السامع عاقلًا، وقادرًا على فهمه.

يفترض الشرط الأول وجود العقل افتراضًا مسبقاً؛ لأن من يعبر عن أي قصد سواء أكان شرعياً أم غير شرعي، هو بالضرورة عاقل، بل إنّ هذا الشرط يفترض كون المتكلم مسلمًا (لاحقًا أصبح شرط العقل جزءًا من تعريف المسلم)[٧٦]. ويستبعد الشرط الثاني حديث النفس والمناجاة، والثالث يقعد للغة الخطاب في مجتمع عقلاني، فضلًا عن إعطائنا لمحة عن الكيفية التي يرى الأصوليون فيها أنفسهم في الحوار. مع استذكار فكرة التطور المتبادل بين علمي النحو والفقه المثارة ابتداءً، ينبغي ملاحظة أن هذه التعريفات الفقهية للخطاب وجدت طريقها نحو علم النحو، فأصبح حديث من لا يعقل، وحديث النائم، وحتى الطير مقلدة البشر مستبعدًا لسبب واحد وهو أن

حديثهم لا يصدر عن نية وقصد (ينظر على سبيل المثال، الشربيني ت. ٩٧٧/ ١٥٧٠، وإن كان هذا الأمر قد أثير قبلُ عند سابقيه).

لقد استخدم الله [سبحانه وتعالى] في خطابه لعباده الشروط والمعايير نفسها. في سبيل البيان لعباده، كان يتحدث في خطاب عقلاني مقنع. لديه من الصفات ما يمكنه من ذلك، فهو [سبحانه] ذو حكمة، وإرادة، ومقدرة خارقة على البيان، ويخاطب عباده بمثل اللغة التي يفهمونها (هناك بعض الشواهد [الآيات]، والتي يتعذر النظر إليها هنا، في التأكيد على أن الله يوحي لأنبيائه بلسان قومهم، وإلا أصبح الوحي لا معنى له: لا يمكن معاقبة المذنبين لعدم اتباعهم أوامر لا يستطيعون فهمها). بالنسبة للأصوليين، طريقة الله في البيان لعباده تكون دومًا الموضوع الرئيس لأطروحاتهم؛ إذ هم عادةً يبدؤون أعمالهم مع عرض مفصل عن طبيعة اللغة العربية، ودلالاتها الشرعية، على نحو ما نجد في الفصول التمهيدية لأبي الحسين البصري (ت. ٤٣٦/ ١٠٤٤) في كتابه المعتمد، أو قد يثار الموضوع بعد تغطية القضايا المعرفية على نحو ما نجد عند الباقلاني (ت. ٤٠٣/ ١٠١٣)، في كتابه التقريب (١/ ٣١٦).

المعنى المعجمي بين سيبويه والأصوليين:

أصبح المعنى المعجمي للكلمات عند سيبويه ولاحقًا عند الأصوليين، لا يعدو إلا أن يكون اعتباطيًا[٧٧]. وشرح المعنى بالمرادف لا يقود إلا إلى مزيد من التراجع (الكتاب، باريس. ٣٩٩: ٢/ بولاق. ٣١٢: ٢)[٧٨]، ولا يعدو المعنى أن يكون أكثر من القصد والمراد؛ ولهذا كان الفعل "أراد" ومشتقاته الأكثر شيوعًا في الكتاب (ورد ١٣٦٢ مرة، فضلا عن ٢٠ في صيغة المبني للمجهول، وفقًا لـ تروبو ١٩٧٦، وهناك أيضا مرادف له). من الواضح أيضًا أن سيبويه كان مدركًا تمامًا للفرق بين معنى القول ومعنى الجملة[٧٩]؛ إذ قد أشار أكثر من مرة إلى "معنى الكلام"، و"معنى الحديث"

اللذين هما جزء لا يتجزأ من معنى القول، وليسا ببساطة جزءًا من مجموع مفرداته. وكلمة "معنى" تستعمل في الغالب وبشكل حصري للدلالة على معنى الأفعال الكلامية، وليس معنى الكلمات، من مثل أفعال التعبير عن الفجاءة، وطرح السؤال، والأمر... الخ. كما تستعمل للدلالة على معنى القسم، ومعنى النداء، وحتى معنى التصنيفات النحوية مثل "معنى النصب"، ومعنى التنوين.. الخ.

يلتقي سيبويه مع الأصوليين، بشكل لافت للنظر، في أن كليهما يحدد معاني الحروف في ضوء وظائفها الخطابية؛ فالواو العاطفة تستعمل للتشريك والجمع من غير إفادة الترتيب، ومثلها الفاء العاطفة في الجمع والتشريك "غير أنها تجعل ذلك منسقًا بعضه في إثر بعض" (الكتاب، باريس. ٣٣٠: ٢/ بولاق. ٣٠٤: ٢، يقارن ذلك باختصار أبي الحسين في المعتمد ١/ ٢٠: الواو للجمع، والفاء للتعقيب). تعريف سيبويه لـ(نعم) مثير للاهتمام، فبدلًا من أن تكون-كما هو متوقع- للموافقة أو الاتفاق، فقد أعطاها تعريفًا تعاقديًا: ".. عِدة وتصديق" (الكتاب، باريس. ٣٣٩: ٢/ بولاق. ٣١٢: ٢). بينما يوحي المعنى السابق بنوع من الالتزام التعاقدي (نعم، أعدُ أنْ أعمله)، فإن اللاحق يؤكد قبول عرض معين (نعم، أصدقك فيما قلت) الذي يعني في سياقنا تصديق وصف البائع للبضائع أو شروط العقد.

لم يتساءل سيبويه يومًا عن أصل المعنى على خلاف الأصوليين الذين كانوا يوجبون معرفة ذلك قبل أن يشرعوا في استخراج الحكم الفقهي من النصوص. يتمثل ذلك جليًا في النقاشات التي استمرت قرنًا ونصف القرن، وبها تمايز علماء أصول الفقه عن موقف سيبويه الغامض. كانت تلك النقاشات تحاول التوفيق بين إمكانية عدم محدودية اتساع المعنى وبين حقيقة أن اللغة العربية ليست أقدم لغة إنسانية. كجزء لحل هذه الإشكالية، الأمر الذي لن يناقش هنا، يمكن القول [طبقًا للأصوليين] بأن

آدم عليه السلام كان يتكلم العربية عندما كان في الجنة قبل أن يهبط منها إلى الأرض على الرغم من أنه لم يتكلم العربية في نزوله إلى الأرض، وإنما ظهرت فقط بعد ذلك وتطورت بشكل تدريجي حتى وصلت إلى مرحلة الكمال في عهد وريثه في النبوة محمد[٨٠] [صلى الله عليه وسلم].

لقد ظهر بعد سيبويه نقاش مستفيض حول أصل نشأة اللغة، الذي حرره لوسيل Loucel (١٩٦٣-١٩٦٤) وانتهى إلى أن النحويين منقسمون بين كونها توقيفية أو اصطلاحية تواضعية. الفجوة التي أشار إليها لوسيل بخصوص عدم وجود دراسة مقارنة حول البحث في أصل نشأة اللغة في العلوم الفقهية، مازالت باقية، الأمر الذي لن نتطرق له هنا. في نطاق أهداف الدراسة الحالية، يكفي أن نلاحظ أن هناك ميلًا عامًا إلى الرأي القائل بأن اللغة في بعض طرقها تواضعية، ولكن تركت هوية الواضع غامضة، وربما بشكل متعمد: ربما يكون الله [سبحانه وتعالى][٨١]، أو المتكلمين الأوائل باللغة العربية، أو جميع متكلميها الذين اتفقوا فيما بينهم على معاني الكلمات.

ولكن يظل الخلاف الحقيقي حول ما إذا كان من الممكن أن يوجد المعنى بشكل مستقل في كلمة ما عند استعمالها. كان المعتزلة، أحد أطياف هذا الخلاف، يرون أن الكلمة تحتوي على معنى قبل أن تستعمل، بينما يرى الطيف الآخر الذي يمثله ابن تيمية- أن الكلمة لا تحوي معنى في الواقع ما لم يتم استعمالها. جميع هذه القضايا عرضها بشكل جيد Ali (٢٠٠٠)[٨٢]. ما يهم الدراسة الحالية هو أن جميع هذه الأفكار، بما فيها مصطلح (واضع) بالمعنى المشار إليه، ليست موجودة في الكتاب، ومن المؤكد أنها ظهرت فيما بعد، ربما بفعل تأثير حوارات أفلاطون حول ما إذا كانت الكلمات تتضمن معنى بطبيعتها أو بالوضع.

من وجهة نظر علماء أصول الفقه كان من المهم فصل المعنى عن مرحلة ما قبل التدوين. وعلى الرغم من الخلاف حول أصل نشأة اللغة، أُخِذ المعنى المعجمي للكلمة كما هو، سواءً أكان بوضعه الأصلي، أي كما نقله لنا أهل اللغة، أو بشكله المجرد المرتبط بالاستعمال الآني. وهذا يعني أن المعنى المعجمي للكلمة من الممكن أن يعامل بشكل طبيعي على أنه اصطلاحي توافقي. ووفقًا لهذا المفهوم، نجد أن الأصوليين بعد نقاش طويل، لم يكن سيبويه فيه طرفًا، عادوا أخيرًا إلى رأيه حول الوظيفة التداولية للمعنى. فأصبح المعنى عندهم، بغض النظر عن أصل منشئه، هو الاستعمال الفعلي للغة. وبتعبير آخر، يصبح للغة معنى عند الأصوليين عندما يكون لها تأثيرات مشروعة خارج الكلام الفعلي. تقييد المعنى وفقًا للعادة أو استعمال المجتمع يساعد الشريعة على ضبط تصرفات ذلك المجتمع. ومن هنا، تكون النتيجة واحدة للنحويين والأصوليين في أن متكلمي اللغة مجبرون للبقاء مع الأعراف المعتادة سواء أكانت لغوية أم اجتماعية.

من الممكن، إذن، القول إن سيبويه أخذ وجهة نظر الأصوليين حول اللغة، وهم أيضًا أخذوا وجهة نظره. تأمل تفسيره التداولي لأفعال من مثل: (رأى، عدَّ، علم... الخ) عندما يقول: يجوز للأعمى أن يستخدم (رأى) بمعنى (الرؤية القلبية) فيقول "رأيت زيدًا الصالح" (باريس ١٣: ١/ بولاق. ١٨: ١)[٨٣]. ونظير هذا الموقف نجده عند الأصوليين كما عند الشيباني (و. ١٣٢/ ٧٤٩، ت. ١٨٩/ ٨٠٤، هنا يلاحظ معاصرته لسيبويه)[٨٤]: الرجل الأعمى الذي يستطيع تمييز البضائع التي للبيع عند الشراء في نفس موضع الرجل المبصر (الجامع، ص ٨١).

لقد ظل سيبويه يؤكد في مرات عديدة على أولوية الاستعمال والعرف، ولا شيء أفضل في توضيح ذلك من نقاشه لتعابير المدح والذم. تلك التعابير، عنده،

ليست مطلقة في الاستعمال، بل يجب فيها اتباع عادات العرب عند استعمالها؛ ولهذا يمتنع أن تعظم ما ليس بنبيهٍ عند الناس، كأن يكون خياطًا أو تاجرَ زرعٍ. [وأيضًا] "ليس كل شيء من الكلام يكون تعظيمًا لله عز وجل يكون لغيره من المخلوقين. لو قلت: الحمدُ لزيدٍ، تريد العظمة لم يجز، وكان عظيمًا"[٨٥]/ [٨٦] (باريس ٢١٤: ١/ بولاق. ٢٥٢: ١). وعلى الرغم من صحة استعمال بعض المقولات المسموعة من مثل "هو مني موضع الإزار"، فإنه يمتنع (القياس) بالقول: هو مني مربط الفرس" (باريس ١٧٤: ١/ بولاق. ٢٠٦: ١)[٨٧]. وقد ناقش أبو الحسين، على هذا النحو، الاستعمال والتداخل بين المعاني (ينظر المعتمد ١/ ١٧ ح: ٢٢-٢٨)، مما يدل على كونه مشكلة محورية لعلم الدلالة الأصولي كما وضحه علي (٢٠٠٠) بمزيد من التفصيل[٨٨].

وأخيرا، من الممكن مقارنة إدراك سيبويه لاستعمالات الكلام المنجز والمُحقق مع ما نجده من تعابير أكثر عمقًا ووعيًا للأفكار نفسها في الأعمال الفقهية التي كتبت بعد أن تشرب علماء أصول الفقه تصنيفات أرسطو للجمل (وهي تصنيفات ابتكرت بعد عصر سيبويه)، وتشمل وظائف النداء، والطلب، والأمر، والالتماس.

وهكذا، نجد أن سيبويه عندما عرف المنادى في نحو (يا عبدَالله) بقوله: "نصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره" (باريس ٢٦٢: ١/ بولاق. ٣٠٣: ١)، جعل الباب مفتوحًا للآخرين لتقدير هذا الفعل من نحو (أنادي) رغم أن اختياره لفظ (الفعل) هنا مهم جدًا، إذا ما عرفنا أن هناك حالات يكون تقدير (فعل) فيها متعذرًا، مثل عبارة (سبحان الله) التي لا يوجد فعل متاح ليُعبّرَ به هنا. ربما يكفي ذلك (لاسيما عندنا نقرن ذلك مع ملحوظات سيبويه الأخرى حول المقولات المحذوفة كما في "خيرَ مقدمٍ أعلاه)؛ لنجيز الافتراض التالي: سيبويه كان مدركًا للجوانب الإنجازية لـ (يا) وعناصر الكلام الأخرى. في المعالجة الأصولية، نجد أن أولئك الذين عاملوا (يا)

بوصفها تمثل فعلًا محذوفًا من مثل (أنادي) تعرضوا لنقد شديد من قبل أبي الحسين (المعتمد ١/ ٢٠). لقد رفض أبو الحسين وبشدة هذا الرأي بناءً على أنّ (يا) مع اسمها تؤدي في ذاتها خبر أنّ فعل نداء قد حدث؛ [فلا حاجة لتقدير الفعل]. وهو هنا يجعل الأمر صريحًا، بعدما تركه سيبويه ضمنيًا كما يحدث في الغالب. لقد أصبحت هذه المسألة في عصر أبي الحسين قضية جدلية، مما جعله يرجع دوافع أولئك الذين يرون تقدير فعل في هذه الحالة؛ إما لكونهم يريدون تبسيط المسألة لأغراض تعليمية[٨٩]، أو إما لكونهم لم يفهموا مقصد سيبويه بحرف النداء. يا النداء، في نظر أبي الحسين، أداة إنجازية بطبعها غير محتاجة لفعل.

الخاتمة

ما تريد الدراسة الحالية أن تصل إليه هو أن سيبويه، ربما انطلاقًا من عبقريته الخاصة، أو ربما بتشجيع من مجتمع علماء المسلمين الأفذاذ المحيطين به، قد اختار أن يعالج اللغة بطريقة تجعله يتقارب بشكل ملحوظ مع المعالجة التداولية في العصر الحديث. النقاط التسع[٩٠]، التي عدَّها Ali (٢٠٠٠) رؤى تداولية أساسية مستمدة من مصادر الأصوليين، من الممكن أن نجد بسهولة معظم نظائرها في الكتاب. بل ربما من الممكن أن نحصل على نسخة أكثر تنظيمًا لهذا البحث عندما نقابل تلك النقاط التسع واحدة تلو الأخرى مع موادٍ من الكتاب.

كانت تلك الأفكار وليدة عند سيبويه، لكن التزاوج الذي حصل بين المنطق الأرسطي والدراسات اللغوية العربية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، أدى إلى ميلاد نسخة أكثر وعيًا وتنظيمًا للموقف نفسه في علم الفقه، وقد بلغت تلك الأفكار أوج تطورها في أعمال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي التي وفرت المادة الأكبر لدراسة Ali (٢٠٠٠). من الممكن هنا أن نشير بشكل رمزي إلى مصطلح (القانون) بوصفه مؤشرًا على هذا التغير والتطور، وإن لم يكن هذا المصطلح ذا وزن وأهمية في حقبة الإسلام الوسطى، كما أنه لم يرد عند سيبويه الذي ذكر ستة مصطلحات تدل على الاستعمال الصحيح للغة العربية (كان إحداها مصطلح سنة)، كذلك لم يكن مصطلح القانون بارزًا في السياقات الفقهية من الحقبة نفسها، لكنه شاع وكثر دورانه في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كما نجد عند الفارابي (ت. ٣٣٩/ ٩٥٠) (الإحصاء، ص ١٠). وقد عزز هذا المصطلح أن وجود قانون منظم للسلوك على غرار نظام الأخلاق اليونانية كان فكرة محبذة وممكنة. ومنذ نقطة التحول تلك، أصبح علم أصول الفقه، كما هو الحال مع علم النحو، يقدم تفوقًا يثير

الإعجاب ليس على مستوى استيعاب الكم الضخم من النصوص الإسلامية التاريخية فقط، بل أيضًا على مستوى مناهج البحث المنطقي والمناظرات الجدلية. ومنذئذٍ، سار العلمان بالتوازي. أصبح النحو شرعيًا بشكل كبير؛ ليمنع اللغة من التغيير، بينما أصبح علم أصول الفقه شيئًا فشيئًا تحليلا نحويًا لنصوص غير قابلة للتغيير.

كانت إحدى نتائج ذلك التحول إمكانية صياغة خمسة مبادئ للتواصل، على النحو الموضح عند Ali (٢٠٠٠، ٦٤)، والتي تبرز التناظر البناء مع قواعد غرايس الأربع. فيما يلي تلك المبادئ بشيء من الاختصار والتصرف[٩١]:

١. إظهار المتكلم االمراد للسامع؛

٢. صدق المتكلم؛

٣. إعمال المخاطب لكلام المتكلم؛

٤. المبادرة من قبل المخاطب (أي، الحمل المتبادر المطابق لقصد المتكلم)؛

٥. الاستصحاب (بقاء ما كان على مكان).

وقد طبق علماء أصول الفقه القدامى، مع مزيد من الحرص والدقة، هذه المبادئ وغيرها لتفسير كلام الله، أو كما يُعبر عنه غالبًا "بالبحث في شريعة الله". ولم يكن ذلك غاية سيبويه، ولكن وصفه الشامل لكيفية عمل اللغة العربية بين المتكلم والمخاطب قد مثّلَ سبقًا لتداولية الأصوليين ووفر لجهودهم العلمية أساسًا (هذبته الأعمالُ النحويةُ التراثية اللاحقة).

لقد كان هناك دائمًا تداولية ضمنية، بشكل ما، في النحو العربي والفقه الإسلامي. على المستوى العام، الإسلام نفسه عقد مع الله، والمجتمع المسلم يربطه نوع من العقد الاجتماعي في أن كل شيء يقال بين المسلمين يحمل بُعْدًا تعاقديًا على غرار

ما نجد في نظرية إدراك الكلام لغرايس. ولعل ذلك أحد الأسباب التي تزجر المسلمين عن الكذب فيما بينهم، لا سيما عند نقل المعلومة الدينية التي يعتمد عليها معتقدهم. لم يجعل سيبويه (الصدق) شرطًا أساسيًا مادام لا يؤثر على الصيغة اللغوية، ولكن الأصوليين أوجبوا جعل الصدق شرطًا لصحة القول الشرعي؛ لأنه، وبكل وضوح، ليس هناك من طريقة تجعل الكلمات نفسها تخبرنا أن المتكلم كان كاذبًا (وتلك نظرة تتجاوز قاعدة الكيفية لغرايس المستحيل إنفاذها؛ لصعوبة الكشف عن الكذب بشكل مقنن).

وأخيرًا، لعل آخر ملحوظة نختم بها هذه الدراسة هي الإشارة إلى أن البعد الفقهي الموجود في الكتاب ما هو إلا تأكيد لجانبين آخرين من حياة وعمل سيبويه، وبهما يتقارب بشكل وثيق مع الأصوليين. أولا: من خلال معرفتنا الضئيلة لتاريخ حياته يمكن لنا أن نستنتج أنه لم يكن فقط على صلة قوية مع علماء العربية الكبار، بل كان أيضًا على صلة وتقارب مع علماء الدين والفقه الأوائل. ثانيًا: كما يدلل على ذلك الكتاب، لقد كان أولئك العلماء مصدر إلهام لمنهجه ولأكثر مصطلحاته العلمية. وعلى الرغم من أن ذلك ليس كافيًا للإجابة على القضية الجدلية حول التأثيرات الأجنبية في النحو العربي بشكل كامل، إلا أنها تقوي الاحتمال القائل بأن الكتاب إبداع فكر رجل واحد، ووصف غير مسبوق للعربية في كل أبعادها الدينية والشعرية والعامة والخاصة في إطار تنظيري مستوحى بشكل عميق من مبادئ النظام الفقهي الناشئ آنذاك، والذي لا يدين بشيء، على الغالب، لأي فكر أجنبي. ربما لا تقابل هذه الرؤية بالاستحسان ممن نهدي إليه المجلد الحالي، لكنَّه تقدير لاعتقاده بحق الاختلاف، ومن ثمَّ فإنَّ مثل هذه الهرطقات يمكن أن تنشر من غير خشية من أي إجراء قانوني[٩٢].

الهوامش والتعليقات:

(١) لمعرفة المزيد عن أنشطتهم العلمية، ينظر موقع الاتحاد على الإنترنت على الرابط التالي:
http://www.ueai.info/

(٢) يكاد لا يخلو عدد من أعداد مجلة الدراسات العربية والإسلامية Journal of Arabic and Islamic Studies- التي تصدر عن معهد الدراسات الاستشراقية في جامعة إكسفورد منذ صدورها في العام ١٩٥٥م- من بحث عن اللغة العربية.

(٣) نشر البحث بعنوان Pragmatics and Contractual Language in Early Arabic Grammar and Legal Theory ضمن فصل من فصول كتاب مقاربات للسانيات العربية معدة بمناسبة الميلاد الستين لكيس فرستيغ Approaches to Arabic Linguistics presented to Kees Versteegh on the occasion of his sixtieth birthday سنة ٢٠٠٧م في الصفحات ٢٥-٤٤. وقد حرر الكتاب كل من E. Ditters and H. Motzki ونشرته دار بريل Brillالشهيرة.

(٤) أود هنا أن أتقدم بالشكر الجزيل لكارتر على تزويدي بهذه المعلومات عن سيرته العلمية.

(٥) رُكز هنا على المؤلفات والأبحاث التي كان لها تأثير كبير في درس النظرية النحوية التراثية على وجه الخصوص تماشيًا مع أهداف البحث، غير أنه ينبغي أن ننبه هنا على أن لكارتر إسهامات في درس القرآن الكريم، والعلاقة بين النحو والشريعة والكتابة حول تاريخ اللغة العربية وكذلك مراجعة الكتب التي تصدر في العالم عن التراث اللغوي العربي، وتحظى مجلة الدراسات العربية والإسلامية بحظ وافر من تلك المراجعات. لمزيد معرفة حول إسهامات كارتر البحثية بوجه عام، ينظر الرابط أدناه:

https://www.lancaster.ac.uk/jais/volume/docs/vol8/v8_2_Carter_1-10.pdf

(6) 1972. ‘‘Twenty Dirhams’ in the Kitāb of Sībawayhi’, Bulletin of the School of Oriental and African Languages 35: 485–96. 146-157.

وقد ترجمه إلى العربية عبد اللطيف الجميلي، ونشره في مجلة المورد العراقية في المجلد ١٦ العدد ١، ص ١١٩-١٢٨، سنة ١٩٨٧م.

(7) 1976. 'The Origins of Arabic Grammar', Proceedings of the 28th International Congress of Orientalists, Canberra 1971. Sydney.

وقد ترجمه إلى العربية عبد المنعم السيد جدامي ومحمود مسعود ضمن مجموعة أبحاث مترجمة في كتاب: دراسات استشراقية حول التراث النحوي العربي في الصفحات: ٥١-١٠٢.

(8) 1980. 'Sībawayhi and Modern Linguistics', Histoire, Épistémologie, Langage (Lille) 2: 6–21.

(9) 1973. 'An Arabic Grammarian of Eighth Century A.D', Journal of American Oriental Society, 93: 146-157.

وقد ترجمه إلى العربية عبد المنعم آل ناصر، تحت عنوان: (نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد: دراسة عن منهج سيبويه في النحو) ونشِر في مجلة المورد العراقية في المجلد ٢٠ العدد ١، في الصفحات ٢٩-٤٠، سنة ١٩٩٢م.

(10) 1973. 'Sarf et Khilaf: Contribution a la Grammaire Arabe," Arabica, 20: 292-304.

(11) 1981. Arab Linguistics: An Introductory Classical Text with Translation and Notes. Amsterdam and Philadelphia: Benjamins.

(12) 1981. 'The Use of Proper Names as a Testing Device in Sībawayhi's Kitāb', Historiographia Linguistica, 8/2-3: 345–56 (also published in Kees Versteegh et al. (eds.). 1983. The History of Linguistics in the Near East, 109–20. Amsterdam and Philadelphia: Benjamins).
Language and Communication 5: 265–77.

(13) 1985. 'When Did the Arabic Word Na□w First Come to Denote Grammar?', 15: 53–66.

وقد ترجمه إلى العربية عبدالمنعم السيد جدامي ومنتصر عبد الرحيم، ضمن مجموعة أبحاث مترجمة في كتاب: دراسات استشراقية حول التراث النحوي العربي، في الصفحات: ١٦٧-١٨٥.

(14) 1985. 'The Term Sabab in Arabic Grammar', Zeitschrift für arabische Linguistik

(15) 1991. 'The Ethical Basis of Arabic Grammar', Al-Karmil 12: 9–23.

(16) 1993. 'Language and law in the Ṣāḥibī of Ibn Fāris', Zeitschrift für arabische. Linguistik 25: 139–47.

(17) 1998. 'Another Khalil: Courtier, Teacher and Sage' in K. Ryding (ed.). Early Medieval Arabic. Studies on al-Khalīl ibn A□mad, 16–43. Washington DC:Georgetown University Press.

(18) 1999. 'The Struggle for Authority. A Re-examination of the Basran and Kufan Debate', in L. Edzard and M. Nekroumi (eds.). Tradition and Innovation. Norm and Deviation in Arabic and Semitic Linguistics, 55–70. Wiesbaden: Harrassowitz.

(19) 2000. 'The Development of Arabic Linguistics after Sībawayhi: Basra, Kufa and Baghdad', in S. Auroux et al. (eds.) History of the Language Sciences. An International Handbook on the Evolution of the Study of Language from the Beginnings to the Present, 263–72. Berlin: Walter de Gruyter.

(20) 2001. 'A Missing Link between Law and Grammar: the Inti□ār of Ibn Wallād' Arabica 48: 51–65.

(21) 2003. 'Legal Schools and Grammatical Theory', in S. Evstatiev (ed.). Arabistikai Isliamoznanie. Tom 2. Studi po sluchai 60-godishninata na dots. d.f.n. Penka Samsareva, 177–83. Sofia: St. Clement Ochridski University.

(22) 2007. Modern Written Arabic. A Comprehensive Grammar (co-authors Elsaid Badawi and Adrian Gully). 2nd edn with corrections. London and New York: Routledge.

(23) 2009. 'Abd al-Qādir b. 'Umar al-Baġdādī, in Joseph E. Lowry, Devin J. Stewart (eds), Essays in Arabic Literary Biography, Harrassowitz, Wiesbaden, 69-77.

(24) 2010. Article 'Kitāb Sībawayhi', in G. J. Roper (ed.), The Oxford Companion to the Book, Oxford.

(25) 2011. 'Indirect questions and reported speech: a problem for Arabic grammatical theory', in A Festschrift for Nadia Anghelescu, ed. A. A. Avram, A. Focşeneanu, George Grigore, Bucharest, 118-133.

(26) 2011.'Mystical grammar or grammatical mysticism', in Ulrich Marzolph (ed.), Orientalische Studien zu Sprache und Literatur. Festgabe zum 65. Geburtstag von Werner Diem, Wiesbaden, 391-401.

(27) 2011. 'The Andalusian grammarians, are they different?', in Bilal Orfali (ed.), In the Shadow of Arabic: The Centrality of Language to Arabic Culture, Beirut, 31-48.

(28) 2011. 'The study of Arabic', Diogenes 58, 1-2, 106-118.

(29) 2012. 'Sentence types in grammar, law and philosophy' in Centre and periphery within the borders of Islam : proceedings of the 23rd congress of L'Union Européenne des Arabisants et Islamisants, edited by Giuseppe Contu, Leuven, 313-325.

(30) 2014. 'Typological change in colloquial Arabic verb patterns', in Manuela E. B. Giolfo (ed.) Arab and Arabic Linguistics: Traditional and New Theoretical Approaches, Journal of Semitic Studies Supplement 34, 69-91.

(31) 2014. The grammar of affective language in the Kitāb, in A. Marogy, K. Versteegh. (Eds.). The Foundations of Arabic Linguistics 2, Leiden, 36-65..

(32) 1990. Studies in the History of Arabic Grammar, II. Proceedings of the 2nd Symposium on the History of Arabic Grammar, Nijmegen, 27 April–1 May1987, co-ed. Kees Versteegh, Amsterdam and Philadelphia: Benjamins.

(٣٣) أُخِذت هذه الترجمة من المزيني، حمزة، التحيز اللغوي وقضايا أخرى، ص ١٢٦-١٢٧.

(٣٤) أثيرت هذه القضية الجدلية بشكل معمق وعلمي ابتداء من قبل كيس فرستيغ في كتابه: (عناصر يونانية في الفكر اللغوي العربي) الذي كان يرى تأثر النحو العربي بالمنطق اليوناني وقد تبعه عدد من الباحثين، غير أن فرستيغ نفسه لم يقدم دليلًا واحدًا مقنعًا على تأثر النحو العربي في نشأته بأي مؤثر أجنبي. وقد انبرى عدد من الباحثين وفي مقدمتهم بعض

المستشرقين المعاصرين إلى دحض هذا الإدعاء من أمثال جيرار تروبو في بحثه: (نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه)، الذي نُشر في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، وكذلك مايكل كارتر كما وضحت الدراسة؛ مما جعل فرستيغ في نهاية الأمر يقر أن التأثر كان لاحقًا في أواخر القرن الثالث الهجري. ولا أحد ينكر أن يكون النحو العربي قد تأثر في نهاية القرن الثالث الهجري، بعد ترجمت كثير من الكتب اليونانية، وهو ظاهر في الكتب التي ألفت لتعليم العربية كالموجز لابن السراج، والجمل للزجاجي، وهو تأثر لم يمس الأصول الأساسية للنحو العربي، بل يكاد ينحصر بما أدخل من الحدود على النحو، واستعمال مصطلحات منطقية في تقسيمات المسائل، وما يصاحب ذلك من حواشي وتعليقات. حول مناقشة هذه القضية بشكل معمق ينظر: فرضية المستشرق مايكل كارتر في أصالة النحو العربي لعبد المنعم السيد أحمد جدامي، والثقافة المنطقية في الفكر النحوي: نحاة القرن الرابع الهجري نموذجًا، لمحي الدين محسب؛ والتفكير العقلي في كتاب سيبويه، لمحمد الخُزيّم؛ وضوابط الفكر النحوي، دراسة تحليلية للأسس التي بنى عليها النحاة آراءهم، لمحمد بن عبد الفتاح الخطيب.

* أود التنبيه هنا على المنهج الذي اتبعته الدراسة؛ حتى يخرج البحث المترجم في لغة واضحة أمينة تنقل وتوضح أفكاره في لغته الأصلية. (أ) في انعكاس لاقتفاء منهج ولغة المستشرقين الأوائل في طريقة الكتابة؛ تختفي العناوين الجانبية من البحث، الأمر الذي جعل الترجمة تستحدث عناوين وتضعها بين معكوفتين؛ ليسهل على القارئ فهم أفكار البحث وقراءتها بشكل تسلسلي واضح. (ب) دُمجت هوامش المترجم مع هوامش الباحث، ولكنها ميزت بالنص بين قوسين بذكر كلمة (المترجم) في نهاية الهامش. (ج) راجعت الترجمة اقتباسات الباحث من الكتاب وغيره وصححت بعضها. (د) وضحت بعض الأفكار الواردة في البحث بالشرح والتعليق في الهامش. (هـ) رغبة في تماسك لغة وأسلوب المتن، عولجت أحيانًا استطرادات الباحث في متن البحث بترجمتها في الهامش مع الإشارة على ذلك.

(٣٥) كما سيتضح في ثنايا البحث، يقصد الباحث هنا أن لمنطق أرسطو تأثيرًا لاحقًا في تطور علمي النحو والفقه (المترجم).

(٣٦) اعتمد الباحث في الإحالة على الكتاب على طبعة بولاق الشهيرة، وعلى طبعة باريس التي حققها Hartwig Derenbourg سنة ١٨٨١-١٨٨٩م، وقد أعيدت طباعتها في ألمانيا من قبل دار Hildesheim سنة ١٩٧٠م. في ترجمة إحالات الباحث على الكتاب سوف أرمز لطبعة بولاق بكلمة (بولاق) كما فعل الباحث، وسوف أرمز لطبعة باريس بكلمة (باريس) عوضًا عن "Der" التي استخدمها المؤلف أخذًا من الاسم الأخير للمحقق Hartwig Derenbourg (المترجم).

(٣٧) النص كما جاء في طبعة بولاق: "ولكن العباد إنما كلموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون". وكذلك جاء في طبعة هارون ١/ ٣٣١ (المترجم).

(٣٨) ذكر الباحث أنه لم يتسن له الرجوع إلى نص الإمام الشافعي، وإنما اعتمد على ترجمة ماجد خدوري لكتاب الرسالة (انظر قائمة مراجع الباحث). وقد رُجع إلى نص الشافعي في كتابه الرسالة (ص،٥١-٥٢)، وجُعل ترجمة لنص المؤلف. وقد فُضِّل هنا عدم إقحام تنبيه الباحث في النص للحفاظ على سلاسة الأسلوب (المترجم).

(٣٩) يتوافق كلام الباحث هنا مع ما يذهب إليه الكثير من مؤرخي علم أصول الفقه المعاصرين إلى عدّ الإمام الشافعي المؤسس الأول لهذا العلم من خلال كتابه (الرسالة)، غير أن وائل حلاق في كتابه (تاريخ النظريات الفقهية في الإسلام، مقدمة في أصول الفقه السني، ص ٥٤، ٥٩) وضح أن ذلك ابتكار متأخر؛ لأن أصول الفقه كما نعرفها الآن لم تبصر النور حتى أواخر القرن الثالث الهجري، الذي لم ينتج بحثا كاملا عن أصول الفقه، كما أن رسالة الشافعي نفسها لم تُولِّد أي تعليق أو دحض لدى مؤلفي هذه الحقبة، وإن كانت تمثل المحاولة الأولى لتجميع الجهد المنتظم للاجتهاد البشري، والاستيعاب الكامل للوحي كقاعدة الفقه الأساسية (المترجم).

(٤٠) أي تفسيرها وجعلها مفهومة لعامة الناس (المترجم).

(٤١) هنا يشير الباحث إلى مصطلحات سيبويه في الحكم على الاستعمال اللغوي من مثل: قبيح، وحسن، ومستقيم..الخ.

(٤٢) يرى الباحث،كما سيتضح في ثنايا البحث، أن اللسانيات التداولية من الناحية التاريخية مرت بمرحلتين هما مرحلتا سيبويه والأصوليين قبل أن تنضج نظرياتها في العصر الحديث، وهو يسجل بذلك سبقًا لسيبويه وعلماء أصول الفقه من بعده في وضع أسس هذا العلم (المترجم).

(٤٣) يعتمد كارتر في تتبع جذور النظرية التداولية عند علماء أصول الفقه على الكتاب الذي ألفه باللغة الإنجليزية محمد محمد يونس علي ونشرته دار كيرزون برس سنة ٢٠٠٠م تحت عنوان: Medieval Islamic Pragmatics: Sunni Legal Theorists' Models of Textual Communication (ينظر قائمة مراجع البحث). وقد ترجمه المؤلف للعربية تحت عنوان: علم التخاطب الإسلامي:دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، ونشرته دار المدار الإسلامي في بيروت، سنة ٢٠٠٦م (ينظر قائمة مراجع الترجمة).

(٤٤) من أشهر تعريفات علم أصول الفقه وأكثرها ورودًا في المؤلفات التي أرخت له-تعريف القاضي البيضاوي الشافعي (ت ٦٨٥هـ)؛ حيث عرفه بأنه "معرفة دلائل الفقه إجمالاً، وكيفية الاستفادة منها وحال المستفيد" (منهاج الوصول إلى علم الأصول، ١/ ١٦).

(٤٥) أي تقديم المتكلم المعلومة لمخاطبه بالقدر المطلوب. وقد ترجمها شاهر الحسن في كتابه (الدلالة السمانتكية والبراجماتية في اللغة العربية، ص ١٦٩) على هذا النحو: "أن تكون مساهمة المتخاطبين بالقدر الكافي دون زيادة أو نقصان" (المترجم).

(٤٦) قد جمع فليب بلانشيه في كتابه (التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص ٨٤) القاعدتين في قاعدة واحدة على هذا النحو: "تقول ما هو ضروري بالضبط ولا تزد على أكثر مما هو ضروري" (المترجم).

(٤٧) فسرها طه عبد الرحمن بـ"ليناسب مقالُك مقامَك"، (اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص ٢٣٨) (المترجم).

(٤٨) يريد الباحث هنا أن يشير هنا إلى ما يسمى في نظرية غرايس بالخروج المسوغ وغير المسوغ على تلك القواعد.

(٤٩) معنى الجملة هو محور اهتمام علم الدلالة الذي يركز على الوظيفة الدلالية للتراكيب النحوية التي ترتكز بدورها على المعنى الحرفي الذي تؤديه الجملة بغض النظر عن أي بعد غير لساني. في المقابل، معنى القول هو محور اهتمام التداولية؛ لأنها تقدم من خلاله شرحًا لظروف الاستعمال عند أداء ذلك القول. بتعبير أدق، علم الدلالة مجاله المنطوق؛ لذلك يهتم بمعنى الجملة، بينما علم التداولية يهتم بالملفوظ، ومن هنا كان اهتمامه منصبًا على معنى القول. لمزيد تمييز بين معنى الجملة ومعنى القول، ينظر القاموس الموسوعي للتداولية، ص ٢٦-٢٧ (المترجم).

(٥٠) يقسم بعض النحويين، كابن الحاجب (انظر الكافية، ٢/ ٣١١، وشرح شذور الذهب لابن هشام، ص ٣١)، الكلام إلى خبر وطلب وإنشاء. إن احتمل التصديق والتكذيب، فهو خبر نحو: قام زيدٌ، ما قام زيدٌ، وإن لم يحتملهما، فإما أن يتأخر وجود معناه عن وجود لفظه أو يقترنا، فإن تأخر عنه، فهو الطلب نحو: اضرب، ولا تضرب، وهل جاءك زيد؟ وإن اقترنا فهو الإنشاء، كقولك لعبدك: أنت حرٌّ، وقولك لمن أوجب لك النكاح: قبلتُ هذا النكاح. وللنحاة تقسيمات أخرى للكلام ذكرها ابن الشجري في أماليه، ١/ ٤٢٤ والسيوطي في الهمع،١/ ١٢ (المترجم).

(٥١) من المناسب هنا أن نتذكر تحليلا شبيهًا للتركيب النحوي: "زيدٌ جاء أبوه"، الذي جعله برافمان (١-٣٦، ١٩٥٣) مشتقًا من إجابة ذاتية للسؤال: "ماذا عن زيد؟ جاء أبوه". سيبويه قارن تركيب نعم مع نفس التركيب: "عبدالله ذهب أخوه". تحييد الفاعل الأصلي في تحليل برافمان لا يتوافق جوهريًا مع نظرية غرايس، ولكنه يتوافق تمامًا مع مبدأ سيبويه التداولي البارز (الكتاب، باريس. ١:٣٤٦/ بولاق. ١:٣٩٤) الذي اكتسبه من أستاذه الخليل بن أحمد، والذي يقول: كل مبتدأ لا بد له من خبر؛ لأن المخاطب يتوقعه.

(٥٢) عبارة سيبويه كما جاءت في الكتاب هي: " [...] وأنه فيما ينتظر المحدَّث ويتوقعه منه، مما لابد له من أن يذكره للمحدَّث؛ لأنك إذا ابتدأت الاسم فإنما تبتدئه لما بعده، فإذا ابتدأت فقد وجب عليك مذكور بعد المبتدأ لابد منه، وإلا فسد الكلام ولم يسغ لك [...]" (المترجم).

(٥٣) ما قاله سيبويه نصه كما يلي: "مررت برجلين مسلم وكافر، جمعت الاسم وفرقت النعت. وإن شئت كان المسلم والكافر بدلاً، كأنه أجاب من قال: بأي ضرب مررت؟ وإن شاء رفع كأنه أجاب من قال: فما هما؟ فالكلام على هذا وإن لم يلفظ به المخاطب؛ لأنه إنما يجري كلامه على قدر مسألتك عنده لو سألته" (بولاق ١/ ٢١٤) (المترجم).

(٥٤) نص سيبويه كما جاء في الكتاب (بولاق.١: ٢٧٩): "وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت: عبدالله وربي، كأنك قلت: ذاك عبد الله، أو هذا عبد الله. أو سمعتَ صوتاً فعرفتَ صاحبَ الصوت فصار آيةً لك على معرفته فقلت: زيد وربي. أو مسِسْتَ جسداً أو شممت ريحاً فقلت: زيد، أو المِسك. أو ذقتَ طعاما فقلت: العسل. ولو حُدِّثتَ عن شمائل رجلٍ فصار آيةً لك على معرفته لقلت: عبدالله. كأن رجلاً قال: مررتُ برجلٍ راحمٍ المساكين بارٍ بوالديه، فقلت: فلان واللهِ" (المترجم).

(٥٥) أي، في مثل حذف الفعل جوازا (المترجم).

(٥٦) ولك أن تقول: "خلِّ الطريق"، وفي هذا الصدد يقول سيبويه: "ومنه أيضاً قوله: الطريق الطريق، إن شاء قال: خل الطريق، أو تنح عن الطريق. قال جرير:

خل الطريق لمن يبني المنار به وأبرز ببرزة حيث اضطرك القدرُ

ولا يجوز أن تضمر تنح عن الطريق، لأن الجار لا يضمر" (الكتاب، بولاق.١:١٢٨) (المترجم).

(٥٧) تكتب تلك الأسماء المنصوبة دائما مع علامة نصب مستقلة على آخرها، ولكنها أحيانا يوقف عليها بالسكون.

(٥٨) لم يكن المربد سوقًا فحسب، بل كان أيضًا مكانًا لعلماء الحديث يأتونه للتأكد من صحة مفرداته، وشرح غريبه، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت سيبويه ينتقل للبصرة لدراسة الأثر أو الحديث. لم يذكر المربد في الكتاب (باريس. ٢:٢٦٥/ بولاق.٢:٢٤٨) إلا مرة واحدة، ولأجل فقط التمثيل على وزن "مِفْعَل".

(٥٩) نص هذا المثال كما جاء في الكتاب (بولاق. ١:١٦٥): "تبيعُ الدار، فتقول: حدٌ منها كذا وحدٌ منها كذا" (المترجم).

(٦٠) انظر الكتاب بولاق. ١:١٩٦ (المترجم).

(٦١) من المناسب ذكر كلام سيبويه (بولاق. ١:١٩٦/ هارون. ١:٣٩٣) في هذا الخصوص: "ولا يجوز أن تقول: بعت داري ذراعا، وأنت تريد بدرهم، فيرى المخاطب أن الدار كلها ذراع. ولا يجوز أن تقول: بعت شائي شاة شاة، وأنت تريد بدرهم، فيرى المخاطب أنك بعتها الأول فالأول على الولاء" (المترجم).

(٦٢) ينظر مقترح الخليل في الكتاب (بولاق. ١:١٩٧) (المترجم).

(٦٣) من مثل السياق والمقام وحيثيات الاستعمال والأفعال اللغوية (المترجم).

(٦٤) لا يزال تعريف برجستراسر Bergsträsser (١٩٣٢، ٣٢)القديم للجائز الأكثر إفادةً:

" المسموح به أخلاقيًا ودينيًا وفي الوقت نفسه ذو معنى شرعي؛ لذا هو من حيث الشرع صالح وذو أثر".

استبدلْ "شرعيًا" بـ"لغوي" لترى ماذا يعني هذا المصطلح لسيبويه: "المسموح به أخلاقيًا ودينيًا وفي الوقت نفسه ذو معنى لغوي؛ لذا هو من حيث اللغة صالح وذو أثر".

(٦٥) أمثلة سيبويه في هذا القسم ليست إنجازية بشكل لا لبس فيه، ومن الممكن ترجمتها حرفيًا بـ" لقد بعتُ" كما فُعل في مواضع أخرى من هذا البحث.

(٦٦) مصطلح الرواقيين: (براجماتا pragmata) إنجاز الأشياء بواسطة الكلمات، هو الأساس الذي بنيت عليها التداولية اللغوية بمعنى إنجاز الأشياء بالكلمات.

(٦٧) يشير الباحث هنا إلى بدايات تسرب المنطق اليوناني إلى النحو العربي، وذلك عندما عرف المبرد (الخبر) بأنه الكلام الذي يجوز فيه التصديق أو التكذيب (ينظر المقتضب ٣/ ٨٨). وقد وضح الباحث أن ذلك لم يكن تأثرًا مباشرًا من خلال اطلاع المبرد على المنطق اليوناني، بل

ربما تكون تلك الأفكار قد انتشرت بشكل عفوي عن طريق العلماء المسيحيين لنظرائهم المسلمين (المترجم).

(٦٨) فيما يبدو أنه خطأ طباعي، كذا مفردة في نحو (كذا درهمًا) ليست مميزة في المخطوط عن كذا المكررة بالعطف في نحو (كذا وكذا درهمًا). اعتمد الباحث هنا على الشرح المخطوط، ولكن بالرجوع إلى شرح الرماني المطبوع المحقق، نجد أن النص هكذا "وإذا قلت له كذا كذا درهمًا، فقد وقع الإقرار بأحد عشر درهمًا، وإذا قلت: له كذا وكذا درهمًا- فقد وقع الإقرار بأحد وعشرين درهمًا..." ٤/ ١٥٩٨-٩٩) (المترجم).

(٦٩) لمراجع إضافية، ينظر كارتر ٢٠٠٠أ، حاشية ٢٧، ص ١٨٠.

(٧٠) استُبدل عند الترجمة لفظ الجلالة "الله God" بلغة النص القرآني؛ لأنه هو المقصود من خلال السياق (المترجم).

(٧١) نص سيبويه في طبعة بولاق: "يقول الرجل: أتاني رجل، يريد واحداً في العدد لا اثنين فيقال: ما أتاك رجل، أي أتاك أكثر من ذلك، أو يقول أتاني رجل لا امرأة فيقال: ما أتاك رجل، أي امرأة أتتك. ويقول: أتاني اليوم رجل، أي في قوته ونفاذه، فتقول: ما أتاك رجل، أي، أتاك الضعفاء..." (المترجم).

(٧٢) لا نوافق لغة الباحث في تعليله للجوء علماء الفقه (الأصوليين) إلى اتباع طريقة سيبويه؛ إذ يقول:

"Some centuries later the lawyers had to do the same for God, trying to penetrate his words to divine his purpose, which they could only do by assuming that he spoke to his servants in the same way as a rational human being would under normal circumstances".

لا يمكن في العقيدة الإسلامية القول أن الله يخاطب عباده مثل الإنسان العقلاني؛ لذلك رأينا أن ننقل مراد الباحث هنا بعيدًا عن التقيد بألفاظه (المترجم).

(٧٣) ينظر علي في نسخة الكتاب العربية، ص ١١٥ (المترجم).

(٧٤) نص كلام سيبويه في طبعة بولاق: "ومن ذلك قوله عز وجلّ: (ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم)، كأنه قال: ولا يحسبنّ الذين يبخلون البُخل هو خيراً لهم. ولم يذكر البخل اجتزاء بعلم المخاطَب بأنه البخل، لذكره يبخلون".

(٧٥) هي عند علي في نسخة الكتاب العربية، ص ٧٤ (المترجم).

(٧٦) أي المسلم المكلف الذي باستطاعته فهم فحوى الخطاب فهمًا كاملًا، ولا يمكن ذلك إلا مع وجود العقل (المترجم).

(٧٧) أي ليس هناك علاقة طبيعية بين اللفظ ومعناه، وتلك قضية جدلية في القديم والحديث (المترجم).

(٧٨) يريد الباحث هنا الإشارة إلى نص سيبويه حول عدم نجاعة التفسير بالمرادف عندما قال "ألا ترى أن لو أن إنساناً قال: ما معنى أيان فقلت متى، كنت قد أوضحت. وإذا قال ما معنى متى، قلت في أي زمان، فسألك عن الواضح، شق عليك أن تجيء بما توضح به الواضح" (بولاق ٢/ ٣١٢) (المترجم).

(٧٩) ينظر الحاشية رقم ١٤.

(٨٠) ينظر كارتر (٢٠٠٣ب).

(٨١) عند القائلين بنظرية الإلهام والتوفيق في أصل نشأة اللغة (المترجم).

(٨٢) ينظر الفصل الثاني (الوضع والاستعمال) من كتاب علي في نسخته العربية، ٢٠٠٦ (المترجم).

(٨٣) هذا المثال من الممكن أنه حوّر عمدًا. القراءة الطبيعية للمثال: "رأيت الرجل الصالح زيدًا"، لكن هذا المثال جاء في باب (أفعال القلوب)، لذا (رأى) يجب أن تأخذ جملة كاملة (أصلها المبتدأ والخبر): زيد الصالح؛ ليكون جزآها مفعولا أولا وثانيًا لها.

(٨٤) محمد بن الحسن، أحد علماء الفقه الأوائل، وله كتاب: (الجامع الصغير في الفقه) الذي أحال عليه الباحث. ينظر قائمة مراجع المؤلف (المترجم).

(٨٥) فضّل هنا وضع نص كلام سيبويه؛ لأن كلام المؤلف ملبس؛ فقد أدخل رأيين مختلفين لسيبويه في حكم واحد. الرأي الأول حين قال سيبويه: "واعلم أنه ليس كل موضع يجوز فيه التعظيم ولا كل صفة يحسن أن يعظم بها، لو قلت مررت بعبدالله أخيك صاحبَ الثياب أو البزاز لم يكن هذا مما يعظم به الرجل عند الناس ولا يفخم به" (بولاق ١/ ٢٥١). وسيبويه هنا يناقش طرق العرب في قطع الصفة على التعظيم. أما الرأي الثاني فهو يلخصه النص الذي اقتبسناه من الكتاب وجعلناه ترجمة لنص الباحث:

still less praise a person in terms normally used of God, e.g. al-ḥamdu li-zaydin"praise be to Zayd!"

(٨٦) حول مقولة سيبويه في آخر النص المقتبس: "وكان عظيمًا" علق كارتر بقوله: "ربما تكون هذه العبارة من سيبويه أو من أحد شراح الكتاب". وقد حبذ عدم ترجمة ذلك في المتن حفاظا على تماسكه (المترجم).

(٨٧) يريد الباحث من إيراد المثالين المذكورين أن يلفت نظر القارئ إلى حرص سيبويه على التزام طرق العرب في استعمالها لكلامها. وهنا نص سيبويه: "وقال: هو مني معقد الإزار، فأجرى هذا مجرى قولك: هو مني مكان السارية، وذلك لأنها أماكن، ومعناها هو مني في المكان الذي يقعد فيه الضرباء، وفي المكان الذي نيط به الثريا، وبالمكان الذي ينزل به الولد، وأنت مني في المكان الذي تقعد فيه القابلة، وبالمكان الذي يعقد عليه الإزار، فإنما أراد هذا المعنى ولكنه حذف الكلام. وجاز ذلك كما جاز دخلت البيت وذهبت الشأم؛ لأنها أماكن وإن لم تكن كالمكان. وليس يجوز هذا في كل شيء، لو قلت: هو مني مجلسك أو متكأ زيد، أو مربط الفرس، لم يجز. فاستعمل من هذا ما استعملت العرب، وأجز منه ما أجازوا" (بولاق ١/ ٢٠٦).

(٨٨) ينظر الفصل الخامس (طرق الدلالة) من كتاب علي في نسخته العربية، ٢٠٠٦.

(٨٩) علق كارتر بعد ذكر السبب الأول بقوله متعجبًا بين قوسين: (how condescending!) أي، "يا له من تنازل" منتقدًا تبسيط متأخري النحاة نحو سيبويه لأغراض تعليمية؛ مما قتل ما في الكتاب من فكر نحوي رائد (ينظر النقطة الخامسة في الحديث عن أهمية البحث المترجم).

(٩٠) حول هذه النقاط التسع، ينظر كتاب علي في نسخته العربية، ٢٠٠٦: ٢٧-٣٠ (المترجم).

(٩١) لمزيد شرح حول هذه المبادئ، ينظر المرجع السابق، ص ١٠٠ وما بعدها.

(٩٢) كما وضّح سابقًا في الهامش رقم (٣٦)، يعني كارتر بكلامه، هنا،كيس فرستيغ، الذي يرى تأثر النحو العربي بفكر أجنبي.

مصادر ومراجع البحث المترجم

المصادر:

١- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، التقريب والإرشاد الصغير. تحقيق: عبد الحميد بن علي أبو زنيد. بيروت، ١٩٩٨م.

٢- أبو الحسين البصري، كتاب المعتمد في أصول الفقه. تحقيق: محمد حميد الله وتعاون كل من محمد بكر وحسن حنفي. دمشق، ١٩٦٤م.

٣- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى، شرح كتاب سيبويه. مخطوط لم يطبع، Feyzulla ١٩٨٤م.

٤- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب. (١) تحقيق هارتوج ديرنبورج. باريس، ١٨٨١-١٨٨٩. أعيدت طباعته في مدينة هيلدسايم Hildesheim ألمانيا، ١٩٧٠م. (٢) طبعة بولاق، ١٨٩٨-١٩٠٠، وأعيدت طباعتها في بغداد، ١٩٦٥م. (٣) تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة، ١٩٦٨-١٩٧٧ (على ترقيم طبعة بولاق). ويحيل البحث غالبًا على (١) و (٢).

٥- السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله المرزبان. شرح كتاب سيبويه. مخطوطة عاطف أفندي رقم ٢٥٤٨.

٦- الشربيني، هو شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب، نور السجية في حل ألفاظ الآجرومية. تحقيق: مايكل كارتر، مطبوع ضمن كتاب:

Arab Linguistics, an introductory classical text with translation and notes. Amsterdam, 1981.

٨- الشيباني، محمد بن الحسن. الجامع الصغير في الفقه (طبع على هوامش كتاب الخراج لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري. بولاق، ١٨٨٤م.

٩- الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد، إحصاء العلوم. تحقيق: أنخيل جونشالز. بلنسية/ مدريد، ١٩٣٢م.

١٠- ابن معطي، أبو الحسين يحيى بن عبدالنور، الفصول الخمسون.تحقيق ودراسة: محمود محمد الطناحي. القاهرة، ١٩٧٦م.

١١- ابن ولاد، أحمد بن محمد، كتاب الانتصار. تحقيق: مونيك برناردز، طبع ضمن:

12- Changing Traditions. Al-Mubarrad's Refutation of Sībawayh and the Subsequent Reception of the Kitāb, Arabic pp. 1–212. Leiden, New York, Koln,1997.

المراجع:

1- Ali Mohamed M. Yunis . 2000. Medieval Islamic Pragmatics. Sunni legal theorists' models of textual communication. Richmond.

2- Bergstraser, G . 1935. G. Bergstraser's Grundzuge des islamischen Rechts: bearbeitet und herausgegeben von Joseph Schacht. Berlin, Leipzig.

3- Bravmann, Meir . 1953. Studies in Arabic and General Syntax. Cairo.

4- Buburuzan, Rodica . 1993. "Exclamation et actes de langage chez Sībawayhi." Revue Roumaine de Linguistique 38, 421–437.

5- Carter, Michael G. 2002. "Patterns of reasoning: Sibawayhi's analysis of the h_āl." Proceedings of the 20th Congress of the Union of European Arabists and Islamicists, Part One, Linguistics, Literature, History [= The Arabist, vol. 24–25]. K. Devenyi , ed. Budapest.3–15.

6- ——. 2003a. "Legal Schools and Grammatical Theory." Arabistikai islamoznanie. Tom 2. Studi po sluchai 60–godishnata na dots. d.f.n. Penka Samsareva, Simeon Evstatiev , ed. Sofia. 177–183.

7- ——. 2003b. "Talking with and about God, Adam and the Arabic language." Majāz,

8- culture e contatti nell'area del Mediterraneo. It ruoli dell' Islam (21st Congress of the

9- Union of European Arabists and Islamicists, Palermo 2002) [= La Memoria vol. 15]. Antonino Pellitteri , ed. Palermo. 197–208.

10- Crystal, David . 2000. A Dictionary of Linguistics and Phonetics. 4th ed. Oxford.

11- Fleischer, Heinrich Leberecht . 1885–88. Kleinere Schriften, gesammelt durchgesehen und vermehrt von A. Huber, prof. Thorbecke, und F. Buhlau. Leipzig. Repr. Osnabruck. 1968.

12- Grice, H. Paul . 1989. "Logic and Conversation." Studies in the Way of Words, 22–40.

13- Cambridge, Mass. and London.

14- Khadduri, Majid . 1987. Al-_Imām Muh_ammad ibn Idrīs al-Shāfi_ī's al-Risāla fī _us_ūl alfiqh. Treatise on the foundations of Islamic jurisprudence. Translated with an introduction,notes and appendices. 2nd ed. Cambridge.

15- Larcher, P. 1990. "Elements pragmatiques dans la theorie grammaticale arabe post-classique."Studies in the History of Arabic Grammar II. Kees Versteegh , Michael G. Carter ,eds. Amsterdam. 193–214.

16- ——. 1998. "Une pragmatique avant la pragmatique: 'medievale,' 'arabe' et 'islamique'."Histoire, Epistemologie, Langage 20, 101–116.

17- Loucel, Henri . 1963, 1964. "Les origines du langage d'apres les grammairiens arabes."

18- Arabica 10, 188–208, 253–291; 11, 57–72, 151–187.

19- al-Marġīnānī, Burhān ad-Dīn . 1870. The Hedaya or Guide: a commentary on Musulman laws, trans. by Charles Hamilton , 2nd edition. Standish G. Grady, ed. London (reference is to the reprint 1963).

20- Moutaouakil, Ahmad . 1990. "La notion d'actes de langage dans la pensee linguistique arabe ancienne." Studies in the History of Arabic Grammar II. Kees Versteegh , Michael G. Carter , eds. Amsterdam. 229–238.

21- Simon, Udo . 1993. Mittlelalterliche arabische Sprachbetrachtung zwischen Grammatik und Rhetorik. Heidelberg.

22- Troupeau, Gerard . 1976. Lexique-index du Kitāb de Sībawayhi. Paris.

23- Versteegh, Kees [C.H.M.]. 1977. Greek Elements in Arabic Linguistic Thinking. Leiden: E.J. Brill.

مراجع الدراسة والترجمة

١- باكلا، محمد حسن. (١٩٨٢). اللسانيات العربية: مقدمة وبيليوغرافية. لندن: دار مانسل.

٢- بلانشيه، فليب. (٢٠٠٧). التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع.

٣- البيضاوي، القاضي عبدالله بن عمر. (ت. ٦٨٥هـ، ط. ٢٠٠٦م). منهاج الوصول إلى علم الأصول، ومعه تخريج أحاديث المنهاج للحافظ زين الدين العراقي. اعتنى به مصطفى شيخ مصطفى. بيروت: مؤسسة الرسالة.

٤- جدامي، عبدالمنعم السيد. (٢٠٠٤). فرضية المستشرق مايكل كارتر في أصالة النحو العربي، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد (٦٤)، عدد (١) يناير.

٥- جدامي، عبدالمنعم السيد. (٢٠١٦). المستشرقون والتراث النحوي العربي. الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

٦- ابن الحاجب، جمال الدين بن عثمان بن عمر بن أبي بكر المصري الإسنوي المالكي. (ت. ٦٤٦هـ، ط: ٢٠١٠م). الكافية في علم النحو، تحقيق: صالح عبد العظيم الشاعر، القاهرة: مكتبة الآداب.

٧- الحسن، شاهر. (٢٠٠١). الدلالة السمانتكية والبراجماتية في اللغة العربية، بيروت: دار الفكر.

٨- الحصين، أحمد عبدالعزيز. (٢٠١١). نشأة الاستشراق مراحله ودوافع المستشرقين، مصر: دار الإيمان للطباعة والنشر.

٩- حلاق، وائل. (٢٠٠٧). مقدمة في أصول تاريخ النظريات الفقهية في الإسلام: مقدمة في أصول الفقه السني. ترجمة: أحمد موصللي، مراجعة: فهد الحمودي. بيروت: دار المدار الإسلامي.

١٠- الخزيم، محمد بن سليمان بن صالح. (٢٠٠٨). التّفكير العقلي في كتاب سيبويه، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود.

١١- الخطيب، محمد بن عبد الفتاح. (٢٠١٣). ضوابط الفكر النحوي، دراسة تحليلية للأسس التي بنى عليها النحاة آراءهم، القاهرة: دار النضائر.

١٢- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز .(ت. ٧٤٨ه، ط: ١٩٨٥). سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط . بيروت: مؤسسة الرسالة.الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى. (ت.٣٨٤ه، ط: ١٩٨٢م). شرح الرماني لكتاب سيبويه، تحقيق: المتولي رمضان، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر.

١٣- تروبو، جيرار. (١٩٧٨). نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، المجلد ١، العدد ١، ص ١٢٥-١٣٨، كانون الثاني، الأردن.

١٤- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر. (ت: ١٨٠هـ، ط: ١٩٨٨م). الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي. كذلك رجع لطبعة بولاق الشهيرة.

١٥- السلطاني، فارس حسن. (٢٠٠١). جهود المستشرقين اللغوية في اللغة العربية (المترجمة والمطبوعة)، رسالة دكتوراه، كلية التربية، جامعة بغداد.

١٦- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين. (ت: ٩١١هـ، ط: ٢٠١٠م). همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، القاهرة: المكتبة الوقفية.

١٧- ابن الشجري، ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة. (ت: ٥٤٢هـ، ط: ١٩٩١م). أمالي ابن الشجري، تحقيق: محمود محمد الطناحي، القاهرة: مكتبة الخانجي.

١٨- عبدالرحمن، طه. (١٩٩٨). اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

١٩- علي، محمد محمد يونس. (٢٠٠٦). علم التخاطب الإسلامي:دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص. بيروت: دار المدار الإسلامي.

٢٠- عمايرة، إسماعيل أحمد. (١٩٩٢). المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية، عمان: دار حنين.

٢١- فرستيغ، كيس. (٢٠٠٣). عناصر يونانية في الفكر اللغوي العربي، ترجمة: محمود كناكري، الأردن: عالم الكتب الحديث.

٢٢- فوك، يوهان. (٢٠٠١). تاريخ حركة الاستشراق: بدايات الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى القرن العشرين، نقله إلى العربية عمر لطفي العالم، بيروت: دار المدار الإسلامي.

٢٣- كارتر، مايكل. (١٩٨٧). عشرون درهمًا في كتاب سيبويه. ترجمة: عبد الطيف الجميلي، مجلة المورد العراقية، في مج ١٦، ع١، ص ١١٩-١٢٨.

٢٤- كارتر، مايكل. (١٩٩٢).نحوي عربي من القرن الثامن للميلاد: دراسة عن منهج سيبويه في النحو، ترجمة: عبد المنعم آل ناصر، مجلة المورد العراقية، مج ٢٠، ع ١، ص ٢٩-٤٠.

٢٥- كارتر، مايكل. (٢٠١٥). جذور النحو العربي، ترجمة: عبد المنعم السيد جدامي ومحمود مسعود، منشور ضمن مجموعة أبحاث مترجمة في كتاب: دراسات استشراقية حول التراث النحوي العربي، في الصفحات: ٥١-١٠٢.

٢٦- كارتر، مايكل. (٢٠١٥). متى ظهرت الكلمة العربية (نحو) للمرة الأولى بمعنى (القواعد)؟ ترجمة: عبدالمنعم السيد جدامي ومنتصر عبد الرحيم، منشور ضمن مجموعة أبحاث مترجمة في كتاب: دراسات استشراقية حول التراث النحوي العربي، في الصفحات: ١٦٧-١٨٥.

٢٧- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد.(ت: ٢٨٥هـ، ط: ٢٠١٠م). المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، بيروت: عالم الكتب للطباعة والنشر.

٢٨- محسب، محي الدين. (٢٠٠٧). الثقافة المنطقية في الفكر النحوي: نحاة القرن الرابع الهجري نموذجًا، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والرسائل.

٢٩- المزيني، حمزة قبلان. (٢٠٠٤). التحيز للغوي وقضايا أخرى. ضمن سلسة كتاب جريدة الرياض، العدد ١٢٥.

٣٠- موشلر، جاك؛ ريبول، آن. (٢٠١٠). القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة: مجموعة من الباحثين،تونس: المركز الوطني للترجمة.

٣١- ابن هشام، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين. (ت:٧٦١ه، ط: ٢٠١٠م). شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق: عبد الغني الدقر، دمشق: الشركة المتحدة للتوزيع.

32- Carter, M. G.(2007). 'Pragmatics and Contractual Language in Early Arabic Grammar and Legal Theory', in E. Ditters and H. Motzki (eds.). Approaches to Arabic Linguistics. Presented to Kees Versteegh on The Occasion of His Sixtieth Birthday, 25–44. Leiden and Boston: Brill.

33- Versteegh, Kees. (1994). 'Western Studies on the History of Arabic Grammar', 1969-1994. Proceedings of the Colloquium on Arabic Linguistics، Bucharest August 29 - September 2. 1994 .Edited by Nadia Anghelescu and Andrei Avram. Bucharest: University of Bucharest. I, 9-27.

٣٤- ترجمه إلى العربية بوشعيب برامو، بعنوان: الدراسات الغربية حول تاريخ النحو العربي ١٩٦٩-١٩٩٤م، ونشر في مجلة ثقافات (جامعة البحرين)، العدد ١٥، ١٦ في الصفحات ١٩٧-٢٠٨، ٢٠٠٥.